الطاهر بن جلّون

الإسلام
كما نشرحه لأولادنا

'مهمّ وتثقيفي'
Le Figaro

ترجمة
جان هاشم

دار الساقي

صدر للمؤلف عن دار الساقي:

- عشر ليالٍ وراوٍ
- عينان منكسرتان
- الإرهاب كما نشرحه لأولادنا

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

الطاهر بن جلون

الإسلام
كما نشرحه لأولادنا

ترجمة

جان هاشم

دار الساقي

Tahar Ben Jalloun, *L'islam expliqué aux enfants (et à leurs parents)*,
Éditions du Seuil, 2012
© Éditions du Seuil, 2002 et 2012

الطبعة العربية
© دار الساقي 2018
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-425-984-9

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033—6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى إسمان

مقدّمة طبعة عام ٢٠١٢

وُضِعت الطبعة الأولى من هذا الكتاب مباشرة بعد اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ على برجَي التجارة العالميّين في نيويورك. وفي تلك الفترة قيل الكثير عن "الأصوليّة الإسلامية" التي ادّعى الانتماء إليها الإرهابيّون الذين هاجموا الولايات المتحدة في صبيحة ذلك اليوم من أيلول/سبتمبر. وبعد مضيّ عشر سنوات على تلك الاعتداءات ما تزال النظرة إلى الإسلام مشوبة ببعض الأحكام المسبقة. وأسامة بن لادن، الذي خطّط ونظّم هذه الاعتداءات، قُتِل على يد فرقة كومندوس أميركية في الثاني من أيار/مايو عام ٢٠١١ حيث كان مختبئاً في مدينة أبوت أباد الواقعة على بعد خمسين كيلومتراً من العاصمة الباكستانية إسلام أباد، وقد تعذّرت مشاهدة جسده الممزّق بالرصاص ولم يُعرَض على الصحافة، فقرّر الأميركيون رميه

في البحر ليعلن الرئيس الأميركي باراك أوباما أنّ "العدالة قد تحقّقت".

لكن يمكن القول إنّ الخلط بين الإرهاب والإسلام يخفّ أكثر فأكثر حتى وإن ظلّ ماثلاً في بعض الأذهان، وقد تعلّم الصحافيّون كيف يتفادون هذا النوع من التبسيط الذي يولّد نظرة مغلوطة إلى الديانة الإسلامية.

هل يعني ذلك أنه تمّ التوصّل إلى إعادة الإسلام إلى موقعه الخاص بجانب الديانتين التوحيديتين الأخريين اللتين استوحاهما، أي اليهودية والمسيحية؟ وهل أمكن تغيير نظرة الجمهور العريض إلى المسلمين؟ يمكن القول إنّه من هذه الناحية تحسّنت صورة المسلمين كثيراً، خصوصاً في أوروبا.

تسيطر على الذهنيات حالة التباس يستغلّها البعض، فلا تمييز بين السنّة والشيعة، وهناك خلط بين حركة طالبان الأفغانية وجماعة الإخوان المسلمين المصرية، ويعتقد البعض أن الإسلام الإيراني (الشيعي) هو نفسه إسلام بعض المهاجرين في أوروبا، ويُحكى في الشريعة من دون تحديد معنى هذه الكلمة، فيخلط الحابل بالنابل، السياسة بالارهاب الخسيس بحرب الأفيون برجم الزانيات بارتداء الحجاب

بالبرقع الشامل، والكلام المتعصّب بالنصوص الروحانية، وإسلام السعودية بإسلام فرنسا مثلاً، وإسلام باكستان بإسلام دول المغرب، إلخ.

ليس الإسلام كتلة متراصّة، ففيه الكثير من التيّارات ويُمارَس بأساليب مختلفة بحسب الدول التي هو فيها.

لذلك تبدو الحاجة ماسّة أكثر من أيّ وقت مضى إلى تربية توضيحية ضرورية.

ظهر الإسلام، آخر الديانات السماوية، في القرن السابع، وجاء كخاتمة للمرحلة التي بدأت مع اليهودية ثمّ مع المسيحية. والإسلام ديانة حديثة العهد نسبيّاً إذ إن عمرها فقط أربعة عشر قرناً. وهو يشهد انتشاراً أوسع من الكاثوليكية ويعتنقه اليوم أكثر من مليار نسمة. وقد دخل الساحة السياسية العالمية مع الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٨ وانتصار آيات الله على نظام شاه إيران المدعوم آنذاك من الغرب. ومذّاك استعاد الإسلام دوره السياسي مجدِّداً ما كان عليه في بداياته عندما كان محمّد "نبيّاً مسلَّحاً" كما سمّاه الباحث في الشؤون الإسلامية مكسم رودنسون في كتابه **محمّد** (منشورات Seuil، ١٩٧٩). وعلى الأثر اجتذب الإسلام الشيعي بعض

الشعوب وراح يتدخّل في بعض النزاعات مثل تلك الجارية في الشرق الأوسط. ومن جهة أخرى اشتدّ تسييس الإسلام مع النضال ضدّ الاجتياح الروسي لأفغانستان. فقد عمدت السعودية، وهي إحدى الدول الإسلامية التي تتبع المذهب الوهّابي، على اسم أحد فقهاء القرن الثامن عشر الذي دعا إلى إسلام متشدّد جدّاً ومنغلق على نفسه، في تفسير حرفيّ له وبطريقة رجعية، ومعها دول إسلامية أخرى، إلى تمويل بعض قوات الكومندوس من الجهاديين للنضال ضدّ وجود الروس الشيوعيّين، والملحدين بالتالي، في هذا البلد. وقد انسحب هؤلاء من أفغانستان ليحلّ مكانهم على وجه السرعة الأميركيون والأوروبيون الذين أطاحوا نظام طالبان وعملوا جاهدين على مكافحة تأثير هذه الفرقة المتطرّفة ذات العقلية الظلامية والتي تفهم الإسلام بطريقة كاريكاتورية إذا ما نُقل بطريقة مغلوطة كلّياً.

على أثر هذه الأحداث اقترن اسم الإسلام بالإرهاب والتعصّب وانهزام الفكر النقدي وبكره الغرب، حتى أصبح مرادفاً للوحشية البعيدة كلّ البعد عن فكره وتاريخه.

إنّ من السهل التلاعب بالنصوص الدينيّة، وكل ذلك وقف

على المنظور الذي يُعتمد في قراءتها. ولذا، في زمنٍ مبكّر، فهم البعض القرآن بطريقة حرفية، من دون تبصّر، متخلّين عن كلّ عقلانية وتفسير بعيد النظر ورمزيّ. لكن في القرن التاسع اعتمد المذهب المعروف بالمعتزلة خيار العقلانية وأعطى العقل في قراءته القرآن سلطة مطلقة. وقد رأى المعتزلة أن الله منح البشر القدرة على التصرّف بحريّة وأن الناس مسؤولون عن أعمالهم وأنهم سيحاسبون في نهاية الأزمنة على أساس تصرّفاتهم. لم يرق هذا الموقف أهل "السنّة" الذين رفضوا بقوة مفهوم حرّية الاختيار عند البشر معتبرين أنّه عائق أمام قدرة الله المطلقة وعلى أساس أنّ هذه القدرة ليست في متناول العقل البشريّ.

واحتدم النقاش حول القرآن كتاب الإسلام المقدّس، فقال العقلانيون (المعتزلة) بأنّ القرآن حديث، أي مخلوق ومستقلّ بالتالي عن الله، فيما قال المحافظون (أهل السنّة) بأنه قديم أي غير مخلوق وأنه بالتالي من جوهر الله، معتبرين أنّ هذا النصّ هو "المعجزة الوحيدة التي أتى بها الإسلام".

بذلك لا نصبح فقط أمام نظرتين إلى الدين الإسلامي بل أمام نظرتين إلى العالم. وقد انتصر في هذا النزاع أهل السنّة

وهو ما يفسّر استمرار الدول الإسلامية اليوم في تفسير القرآن بطريقة حرفية وتطبيق الشريعة، أي القانون التقليدي الذي كان مرعيّ الإجراء في الحقبة التي فرض فيها الإسلام نفسه في الجزيرة العربية.

وبناءً على ذلك، يرى بعض المؤمنين في القرآن نصّاً يعزّز إيمانهم لا فكرهم، ينظرون فيه من دون أيّ منظور، لا بل أسوأ من ذلك، هم يُحجمون عن أيّ طرح فكريّ. يحفظونه غيباً ويتلونه بشكل آليّ من دون التوقف والنظر في السياق الذي نزلت فيه آية ما ولا في معنى هذه السورة أو تلك. هم يكتفون بتجويد القرآن من دون التجرّؤ على التمعّن فيه، وخصوصاً من دون مقارنته بواقع الحياة وبتطوّر العالم وبتغيُّر الذهنيات.

ويجدر هنا التذكير بأنّ القرآن مؤلَّف من ٦٢٣٦ آية نزلت وحياً على محمّد على مدى عشرين عاماً في أماكن مختلفة وفي ظلّ ظروف تاريخية محدّدة. وهذه الآيات الـ٦٢٣٦ لم تُجمع إلا بعد عشرين عاماً من وفاة النبيّ في كتاب مقسّم إلى سُوَرٍ ووفق نظام لا تفسير له. وكان الصحابة الخمسة الأقرب إلى النبيّ قد استجمعوا ذاكرتهم، بإدارة عثمان، الخليفة الراشديّ الثالث، لكي يجمعوا هذه الآيات ويؤلّفوا الكتاب،

القرآن. وهذا ما قاموا به بالنسبة إلى أقوال النبيّ وأحاديثه فكان الكتاب الذي عُرِف بـ"الحديث" وهو كناية عن شروحات وأحاديث فلسفية ومعلومات عن الظروف التي نزلت فيها تلك الآيات. وقد أضاءت هذه الشهادات من صحابة النبي بطريقة ذكيّة على النصّ القرآنيّ.

إنّ الله نفسه يوصي بالنظر في القرآن على ضوء الإيمان والعقل معاً. فالإنسان مخيَّر بين فعل الخير أو الشرّ وله ملء الحرّية في التصرّف، وفي الآخرة يحاسَب على أفعاله، وهذا ما يعني أنّ القرآن قد حدّد بوضوح مسؤولية الإنسان.

إن السؤال الذي يطرح نفسه اليوم هو ذو طابع اجتماعي أكثر منه دينيّاً. فما الذي أدّى إلى التضحية بجوهر القرآن لكي يتحوّل إلى إيديولوجية سياسيّة متمحورة حول العنف والكراهية والانتقام؟ ولماذا يتمسّك بعض الرجال والنساء بتفسير للإسلام يتناقض مع مبادئ وقِيَم هذه الديانة ملحقاً بها فوق ذلك أذى لا حدود له؟ في الحقيقة، هذه هي الصورة التي يحفظها العالم عن الإسلام حتى وإن كان من يمارسون إسلاماً متزمّتاً ويتصرّفون بتعصّب هم قلّة قليلة. ذاك أنّ هذا النوع من الإسلام، القائم على الجهل، يُفرز الجهل ويدفع إليه. فلماذا

إذاً يهتمّ بعض الأوروبيّين بدراسة هذه الديانة وكيف لهم أن يتبيّنوا فيه الجوانب الإنسانية واللاعنفية؟

حريّ بنا هنا العودة إلى ابن خلدون (وُلد في تونس عام ١٣٣١ وتُوفي في القاهرة عام ١٤٠٦) أوّل عالم اجتماع ومؤرّخ عربيّ درس المجتمع العربي بطريقة علمية، وهو يبيّن لنا أنّ الفرد يتعلّق بما كوّن شخصيته تاريخياً في سياق "العلاقة القبَليّة" أو "العصبيّة" كما يسمّيها، وهي شكل من أشكال التضامن والشعور بالانتماء والتعلّق بالأسلاف من أبناء أرومته، فيثبت الفرد في كينونته كيفما تطوّر العالم. وقد ظهر الإسلام في القرن السابع في الجزيرة العربية بين قبائل بدويّة متمسكة باستقلاليتها، فوضع قيماً مختلفة خصوصاً تلك الداعية إلى احترام الحقوق الانسانية. فقبل ذلك مثلاً كان بعض العرب يئدون المواليد من الإناث، فشرع الإسلام في حظر هذه الممارسات الوحشية، ووضع إطاراً فلسفيّاً وروحانيّاً وإنسانيّاً يسلك الإنسان فيه مسلك "الخير" وتحصيل المعرفة. ألم يقل النبيّ محمّد: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"؟

ولطالما حارب التقليديون والمتزمتون المنطق والانفتاح الذي تميّز به العالم الإسلامي ما بين القرنين التاسع والثاني

عشر. وفي عصرنا هذا هم الذين يأخذون هذه الديانة رهينة بين أيديهم ويقوّلونها ما لم تقله ويحمّلونها مسلكيّات ومبادئ لم تشجّع عليها قطّ. فالإسلام مثلاً، على غرار سائر الديانات التوحيدية يحظر الانتحار والقتل، وعندما يضحّي شابٌّ أفغانيّ أو باكستانيّ بنفسه ليقتل أكبر عدد ممكن من الناس حوله فإنما يسيء إلى الإسلام وجوهره. فالعنف والتعصّب والكراهية ليست من صلب الإسلام كما كان عندما نزل في القرن السابع وعندما انتشر في العالم بعد ذلك.

فكيف يُفسَّر أن يفقد شابّ ما غريزة الحياة أو البقاء ويستبدلها بإرادة الموت والقتل؟ وكيف يُمكن التوصّل إلى إقناع شابّ في العشرين من عمره بالتضحية بحياته من أجل قضية لن يشهد انتصارها الموعود؟ ليس الشبّان الذين ينفّذونِ العمليات الانتحارية محبطين حكماً ولا هم مختلّون عقليّاً، فهم يتمتّعون عموماً بصحّة تامة ومنحدرون من أوساط ميسورة، لكنهم يبذلون نفوسهم وعقولهم في خدمة عشيرة أو قبيلة يمكن مقارنتها بـ"فرقة".

وقد عرف الأوروبيّون مآسي الفرق التي ضلّلت الكثير من الشبان الذين تصرّفوا بموجب توجيهات مرشد هو في الحقيقة

زعيم زمرة فاسد على درجة من الذكاء والقوة تجعله قادراً على إفراغ أدمغتهم وكذلك حساباتهم المصرفية. هذه مقارنة في الشكل، وإن اختلف الأساس تبقى النتيجة هي نفسها.

إنّ المطلوب اليوم من المسلمين هو أن يعودوا إلى القرآن وينظروا فيه نظرة واعية ومنفتحة ومسؤولة. في عام ٢٠٠٩ نشر كاتبان فرنسيان من أصل مصريّ، تحت اسم مستعار مشترك هو محمود حسين، كتاباً بعنوان *Penser le Coran* (منشورات Grasset) [القرآن على ضوء العقل]. وبعد نشر هذا الكتاب شاركا في نقاشات حوله ولمسوا أن غالبية مسلمي فرنسا تعيش حالة من القلق، إذ يكفي وجود بعض العناصر المتمرّسين لكي ينشروا تفسيراً للقرآن يتناقض مع جوهره. ويثير هذا الإسلام المتعصّب الخوف، لا فقط في أوساط الأوروبيّين حيث الخوف مشروع، بل أيضاً في أوساط الكثير من المسلمين الذين يتلقّون الانعكاسات المؤذية والفادحة الناتجة عن تحوير كلام القرآن، فإذا ما استثنينا اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ على برجي التجارة في نيويورك، نجد أنّ غالبية ضحايا الاعتداءات الإرهابية باسم الجهاد الإسلامي هي من المسلمين.

إنّ الجهل هو الطاغي حاليّاً، يليه الخوف والنزاعات التي تجعل العيش المشترك مشكلة. والقرآن يذكّر تكراراً بالأضرار التي ينشرها الجهل حوله. وأساساً تُسمّى الحقبة التي سبقت مجيء الإسلام "الجاهلية" نسبة إلى الجهل. وقد نزل القرآن لكي ينير العقول ويقودها على طريق الخير والرشاد. والحال أن الحركة الإسلامية تنمو حول الفكر الظلامي، وحول الجهل الذي يفرض نفسه كواقع مبتوت. والأسوأ من ذلك هو أسلمة العقول واستعمار الذهنيات عبر هذا الجهل الذي يسمح لأي شخص ممتلئ بذاته أن يطرح نفسه إماماً ويلقي المواعظ ويعطي النصائح وأحياناً الأوامر في ما يخصّ الحياة الشخصية لكل فرد. ويضاف إلى انتحال الصفة هذا، الهيمنة الكبيرة التي يمارسها الإسلاميون على المسلمين عبر قنوات التلفزة الفضائية العاملة في دول الخليج والشرق الأوسط. وعلى هذه الشاشات تُبَثّ يوميّاً أحاديث تنمّ عن معاداة العقل والتطوّر وفكر الحرّية والعلمانية، والغرب أيضاً. وفي نهاية المطاف تتسرّب هذه الدعاية إلى النفوس الضعيفة أو السيئة الحال التي تحاول أن تعطي معنى لحياتها.

إنّ القرآن نصّ "شاعريّ" فيه المجازات والرموز وبالتالي

من المحتمل أن يُقرأ بطرق مختلفة، ولذلك يبدو من الملحّ التدقيق كيف يُعلَّم في المدارس ومن الذي يعلمه وكيف يُفهم. ويذكّر ابن خلدون بأهمّية التربية والعقلانية التي يجب أن تكون في أساس أيّ تعليم. فعلى الدول الأوروبية أن تتولّى هي هذا التعليم وتعميمه كيلا يبقى الإسلام سرّاً غامضاً أو استيهاماً يزرع الرعب. ولا ينبغي أن يوكل إلى أشخاص توفدهم دول مثل السعودية أو إيران. وفي فرنسا أُدرج تعليم الإسلام في برنامج دروس التاريخ في الصف الخامس، حيث يجب مقاربته بفكر علمانيّ أي موضوعيّ وأن تُقرأ النصوص على ضوء الظرف التاريخي والثقافي الذي وُضعت فيه. لكن من سوء الحظّ أنّ تعليم الإسلام كما تعليم سائر الديانات يبقى سطحيّاً ومنقوصاً. فالإسلام هو الديانة الثانية في فرنسا، وهذا سبب كافٍ لتتولّى الدولة تعليمه بعقلية منفتحة ومتنوّرة. وهذه خطوة لا تتناقض مع العلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة لا محاربة الديانات.

يمكن الديانة الإسلامية أن تعيش في أوروبا إن لم تكن رهينة بيد المتعصّبين الذين يتهمون الغرب بكل المآسي التي يعيشها المسلمون. ووحدها العلمانية كفيلة بأن تخلّص الدين

من التعصّب، وهي لا تتنافى مع الدين بل بالعكس هي تؤمّن احترامه شرط أن يُعاش هذا الدين في بيئته الخاصّة لا في المجال العام. وعلى أوروبا أن تنهض بواجب تبيان قيمة الإسلام بما هو عليه حقيقة فتتصدّى بذلك للجهل عبر المعرفة والدفاع عن المواطنين المسلمين المقيمين على أراضيها والذين باتوا يشكلون أكثر فأكثر جزءاً من تاريخها ووجهها الإنسانيّ. فمن جهة يجب مكافحة التعصّب أمنياً (وهذه وظيفة الشرطة) ومن جهة أخرى تغيير الذهنيات لتجعلها تتقبّل حقيقة أنّ الإسلام يتماشى مع الديموقراطية والحرّية والعلمانية. ولذلك يجب أساساً على بعض السياسيّين الأوروبيين ألا يستغلوا هذه الديانة لأسباب انتخابية وأن يكفوا عن المراهنة على الخوف من أجل حكم بلادهم.

كيف نشرح اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر لأولادنا

لم تفُت أولادَنا مشاهدُ المأساة الأميركية التي وقعت في ١١ أيلول/سبتمبر من عام ٢٠٠١، وقد شغلتهم التعليقات التي سمعوها من هنا وهناك حول الإرهابيين وانتمائهم إلى العالم العربيّ والإسلاميّ وأثارت قلقهم.

وقد طرحت عليّ إحدى بناتي (وكان عمرها أقلّ من عشر سنوات) السؤال التالي:

– أبي، هل أنا مسلمة؟

– نعم مسلمة مثل والديك.

– وهل أنا عربية أيضاً؟

– نعم أنتِ عربيّة حتى وإن كنت لا تتكلمين العربية.

– لكنك شاهدت التلفزيون، المسلمون أشرار، قتلوا

الكثير من الناس وأنا لا أريد أن أكون مسلمة.

– وما الذي تنوين فعله الآن؟

– بعد الآن لن أمتنع عن أكل لحم الخنزير من دكّان المدرسة.

– فليكن إذا أردت ذلك، لكن قبل أن تتخلّي عن كونك مسلمة يجب أن أوضح لك أنّ هؤلاء الأشرار الذين تتكلمين عنهم ليسوا مسلمين حقيقيّين وأنّ هناك أشراراً في كلّ مكان.

– لكن يُقال إنّهم عرب...

– يجب ألا نحكم على كلّ الناس من دون تمييز. ليس كل العرب مسلمين، فهناك عرب مسيحيّون في لبنان ومصر وفلسطين والسودان...

– شاهدت عجوزاً ملتحياً يصلّي مثل جدّي ثمّ يتناول بندقية ويطلق النار على بعض الصور، فهل هو مسلم؟

– إن كان يصلّي مثل جدّك، نعم.

– ولماذا هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الاعتداءات ليسوا مسلمين حقيقيّين؟

– إنّ الله، وهو إله اليهود والمسيحيّين أيضاً، يحرّم على الإنسان أن يقتل نفسه، وهو ما يُسمّى الانتحار، كما يحرّم

قتل الآخرين. وبالتالي فإن هؤلاء الناس الذي ركبوا الطائرات وقتلوا الطيّارين بالسكاكين ثمّ قادوا الطائرات نحو برجَي نيويورك هم جاهلون بالديانة الإسلامية ومتعصّبون.

– ماذا تعني كلمة "متعصّب"؟

– هو الذي يعتقد أنّه دائماً على حقّ ويسعى لأن يكون الأقوى وإن لم توافقه الرأي يتحوّل شريراً خطيراً.

– لم تكن أميركا إذاً متوافقة معهم، ألذلك أسقطوا الطائرة على البرج؟

– كلا لا يمكن الاتفاق معهم، وما قاموا به مروّع ولا أحد يتقبّله.

– ما الذي فعلته أميركا لهم لكي يتصرّفوا بهذه الوحشية؟

– إنّ أميركا، وللمزيد من الدقة الحكومة الأميركية، قد اقترفت الكثير من الأخطاء والمظالم. فهي تقصف الشعب العراقي منذ عشر سنوات وقد قتل في هذا القصف الكثير من الأطفال العراقيين. في عام ١٩٩١ اجتاح الجيش العراقي الكويت المجاورة للعراق، فتدخّلت أميركا ودول أخرى لإخراج هذا الجيش بالقوة من الكويت. ثمّ فرضت الأمم المتحدة عقوبات على العراق، لكن في الواقع الشعب العراقي

هو مَن عوقِب وليس رئيسه. الأمر معقّد كما ترين، ليس بالبساطة التي تظنّينها خصوصاً أنّ أميركا قوّة عظمى ويجب أن تحرص على أن تكون منصفة. ومع ذلك ليس هناك ما يبرّر هذه المجازر.

– لكن الذين هاجموها عراقيون؟

– كلا، بل هم أناس يدّعون أنّهم عرب ومسلمون. أمّا في نظري فهم مجانين.

– ولماذا مجانين؟

– هؤلاء لُقنوا منذ صغرهم وارتيادهم المدارس القرآنية، أنّ الله يأمرهم بقتل أعداء الإسلام وأنّ الله سيكافئهم لاحقاً بإدخالهم الجنّة.

– لم أفهم، أيجب القتل للذهاب إلى الجنّة؟

– بالتأكيد كلا! لكنّهم أقنعوهم بذلك.

– وهل يصدّقون ذلك فعلاً؟ قل لي كيف جعلوهم يصدّقون ذلك...

– يكرّرون عليهم الأمر نفسه عدّة مرات. يعطونهم أمثلة عن الجنود الذين استُشهدوا في المعارك ويتلون على مسامعهم آية من القرآن تقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٦٩)، فينتهي بهم الأمر إلى تصديق ما يكرّر عليهم آلاف المرّات.

– هذا يعني أنهم أشرار جدّاً، يدفعون الناس إلى الموت ليدخلوا الجنة.

– وهذا كذب.

– لكن لماذا يحكي لهم زعماؤهم كل ذلك؟

– لأنّهم يخوضون حرباً على الذين لا يفكّرون مثلهم. هم لا يحبّون الحياة ولذلك يوافقون على التضحية بحياتهم شرط أن يصطحبوا معهم أكبر عدد ممكن من القتلى. إنّهم إرهابيون.

– أبي، ما المقصود بكلمة "إرهابيّ"؟

– تجدين أنّ كلمة "إرهابي" مشتقة من كلمة "رهبة"، ما يعني حالة رعب شديد، حالة خوف عام كبير، فزع، شيء يثير الرعدة والصدمة. وهذا فظيع.

– لا أفهم لماذا بعض الناس الذين يريدون دخول الجنّة لا يذهبون إليها وحدهم؟ لماذا يقتلون ويزرعون الرعب في أوساط من لا يقتلونهم؟

– لا أعرف يا بنيّتي، فأنا مثلك لا يمكنني أن أفهم كيف أنّ بعض الشباب الذي أتمّوا دراساتهم وسافروا في أرجاء العالم ونعموا بما في أميركا من حرّية ورفاهية، قرّروا في أحد الأيام أن يرتكبوا هذه المجزرة مضحّين حتّى بحياتهم هم أنفسهم. قاموا بذلك باسم الإسلام، لكنّهم آذوا عائلاتهم والإسلام والمسلمين. ولم يعد الإسلام هو من دفعهم إلى ذلك، فما من ديانة تدفع إلى قتل أبرياء، والإسلام يعني "العيش بسلام" ولا يعني "قتل الأبرياء". هذا جنون إذاً، لا أنتِ ولا أنا يمكننا فهمه.

– عندما كنتَ ولداً هل كنت مدركاً أنّك مسلم؟

– نعم، فأنا وُلدت في بيت كنت دوماً أرى فيه أمّي وأبي يصلّيان.

– وأنت؟

– أنا أيضاً، لكنّي كنت متكاسلاً خصوصاً في أيّام الشتاء حين يجب النهوض باكراً والاغتسال بالمياه المجلّدة. فالاغتسال قبل كلّ صلاة فرضٌ وهذا ما يسمّى الوضوء.

– لم تكن تتوضّأ إذاً.

– بلى، لكن كان والدي يلاحظ أنني أفعل ذلك شكليّاً

وأنني لا أحبّ المياه الباردة جدّاً.

– وماذا كان يقول لك؟

– جمعنا يوماً أنا وأخي وقال لنا ما يلي: "يا ولديّ، أنتما وُلدتما مسلمَيْن وعليكما طاعة والديكما والله. مبدئياً عليكما إقامة الصلوات الخمس يومياً وكذلك صوم رمضان. لكن ليس في الإسلام إكراه، ولا يحقّ لأحد أن يجبركما على الصلاة، لا الله ولا والدكما، وكما يقول المثل: في الآخرة كل عنزة معلّقة من عرقوبها. لكما إذاً ملء الحرّية وأترك لكما أن تفكّرا في الأمر، أمّا المهمّ فهو ألا تسرقا ولا تكذبا ولا تضربا ضعيفاً أو مريضاً، وألا تخونا ولا تُذِلّا إنساناً مُعدَماً وألا تسيئا معاملة والديكما وخصوصاً ألا ترتكبا المظالم. هذا ما أردت قوله لكما يا ولدَيّ والباقي أنتما تفكران فيه. لقد أدّيت واجبي ويبقى أن تكونا ولدين محترَمَيْن".

– وبعد ذلك؟

– قبّلت يده كما كنت أفعل كلّ صباح وأحسست أنني تحرّرت. أدركت في ذلك اليوم أنّ بإمكاني أن أكون مسلماً من دون أن أمارس بتزمّت أصول الإسلام وشرائعه. كما أتذكّر ما كان يقوله لنا المعلم في المدرسة القرآنية: "الله رحيم"

ويكرّر علينا: "بس الله الرحمن الرحيم"، أي الذي يعرف كيف يسامح.

– قل لي الآن، هل تصلّي أم لا؟

– هذا سؤال يجب ألا يُطرح، ولا داعي للإجابة عن هذا النوع من الأسئلة لأنّه يتعلّق بحرّية الشخص. فإن كنت أصلّي فهذا يعنيني وحدي، وإذا صلّيت فليس لكي أبرهن للناس أنّني مسلم جيّد. يذهب بعضهم إلى المسجد لكي يراهم الناس فيما يذهب آخرون لكي يتمّموا بصدق واجبهم كمؤمنين.

– أبي، أنا خائفة ولا يمكنني النوم.

– لا تشغلي بالك.

– سمعت كلاماً عن وقوع الحرب.

– أيّ حرب؟

– لا أعرف، حتى في المدرسة نبّهونا إلى ضرورة التيقّظ، وإذا ما رأينا كيساً في إحدى الزوايا فعلينا أن نبلّغ المعلمة، لا أدري، أنا خائفة.

– لا تقلقي، الحياة جميلة بالرغم من كلّ شيء.

اليوم الثاني

تخيّلت كيف سيكون وقع هذا الحديث إن واصلته مع أولاد تراوح أعمارهم ما بين عشر سنوات وخمس عشرة سنة.

وتصوّرت أسئلتهم ومخاوفهم وتلهّفهم. ولذلك أردت أن أحكي عن الإسلام والحضارة العربية لأولادي المولودين مسلمين ولكلّ الأولاد مهما كان موطنهم وأصلهم ودينهم ولغتهم وكذلك تطلّعاتهم. وليس في ذلك وعظ ولا مرافعة، ولا أسعى إلى الإقناع بل أروي بأكبر قدر ممكن من الموضوعية والبساطة قصّة رجل صار نبيّاً، وكذلك تاريخ ديانة وحضارة قدّمتا الكثير للبشرية. أعدت قراءة القرآن وراجعت كتب المتخصّصين وبحثت في "دائرة المعارف الإسلامية" محاولاً أن أستعيد في بضع صفحات خمسة عشر قرناً من التاريخ آملاً المساعدة ولو قليلاً على فهم ما يحدث اليوم.

– أبي، لم أفهم جيّداً ما هو الإسلام. أنا مسلمة فماذا

يعني ذلك؟

– أستفيد من هذه المناسبة لكي أحدّثك أنتِ وكلّ الأولاد الراغبين في المعرفة. سأروي لك قصّة هذه الديانة على شكل حكاية.

كان ما كان في قديم الزمان، منذ ما يزيد عن ألف وأربعمئة وثلاثين عاماً، صبيّ صغير يُدعى محمد، ولد عام ٥٧٠، في مدينة مكّة الواقعة في الجزيرة العربية. لم يعرف والده الذي تُوفي عند مولده، ولم يتعلّم في مدرسة. وقد شبّ وهو لا يعرف القراءة والكتابة. وكان الناس يكسبون رزقهم من رعي المواشي ومن التجارة التي كانت تتمّ عبر قوافل تجوب البلاد من مدينة إلى مدينة. وكانت مكّة مركزاً تجارياً مهمّاً تمرّ بها القوافل الآتية من الشمال والشرق والجنوب. وغير بعيد منها تقع مدينة جدّة وهي كناية عن مرفأ.

– ومن هم سكان تلك المنطقة؟

– هم عربٌ، وكانوا بدواً رُحَّلاً وأصحاب قوافل، ويعيشون في الخِيم.

– ما المقصود بـ"البدو"؟

– هم سكان الجزيرة العربية الأوائل، والكلمة مصدر

فعل "بدا" التي تعني "ظهر". فالبدو هم الشعوب الأوائل وقد عاشوا في الصحراء أو في الأرياف.

– وماذا عن كلمة "رُحَّل"؟

– هم أولئك الذين يتنقّلون من مكان إلى آخر وليس عندهم مسكن ثابت. والبدو بالتحديد كانوا جماعات صغيرة على ارتحال دائم سعياً وراء الماء والكلأ. وكانوا يتنقلون بواسطة الجِمال.

– هناك ولد الطفل محمّد. وماذا كانت والدته تفعل؟

– كان اسمها آمنة، وقد تُوفّيت وهو ما زال ولداً عمره أقل من ستّ سنوات. تيتّم إذاً في سنّ مبكرة وقد تعهّدته مرضِعة تدعى حليمة، فيما تولّى جدّه تربيته. وشبّ محمد في مكة مع أعمامه سدَنة الكعبة، وهي مبنى مكعّب الشكل يحوي حجراً شهيراً، هو الحجر الأسود الذي وطئته قدم النبي إبراهيم (خليل الله). إنّه حجر مقدّس ولذلك كان سكّان الجزيرة يأتون مرّة في السنة إلى مكّة سعياً إلى التماسه. وهذا ما يُسمّى الحجّ. لكن كان في هذه المنطقة مسيحيون ويهود، أي بدو يؤمنون بإله واحد. والديانة اليهودية قائمة منذ ٥٧٦٢ سنة، والديانة المسيحية منذ

٢٠٠١ سنة. وفي تلك الحقبة لم يكن أتباع هاتين الديانتين كثراً في هذه المنطقة. أمّا الآخرون غيرهم فقد كانوا يعبدون تماثيل وحجارة... تسمّى "الأصنام". ويبدو أنّه كان في الكعبة ثلاثمئة وستون صنماً. ولم يكن كلّ العرب يعبدون الأصنام، فبعضهم آمن بسلطة الطبيعة وبقوة النور والهواء وارثين ذلك عن أسلافهم أي الذين عاشوا قبلهم...

– وماذا فعل محمد لاحقاً؟

– بعد سنواته الأولى مع مرضعته عاش مع عمّه أبي طالب وهو رجل فقير لكنّه مستقيم وحسن الطويّة، وكان بالنسبة إلى محمد بمثابة والده، منه تعلّم الأمانة والنزاهة والصلاح. وفي الخامسة والعشرين من عمره عمل محمّد عند امرأة تُدعى خديجة، وهي أرملة ثريّة أكبر منه سنّاً إذ كانت في الأربعين من عمرها. وكانت تملك عدّة قوافل، فتزوّج بها ورُزقا بثلاثة صبيان وأربع بنات. لكن الصبيان للأسف لم تُكتب لهم الحياة.

– لماذا تزوج بامرأة تكبره سنّاً؟

– هذا نصيب. فهي صاحبة قوافل تجارية وراحت أكثر فأكثر توكل الأعمال إلى محمّد الشاب. وفي أحد الأيّام

اقترحت عليه أن يكون أكثر من رجل في خدمتها، فوافق على ذلك.

– هل ظلّ مقرّباً من عمّه الذي ربّاه؟

– نعم، وصار عليّ بن أبي طالب، المولود حوالى عام ٦٠٠ مقرّباً جدّاً من محمد، فهو ابن عمّه وصديقه في الوقت نفسه. وقد أدّى عليّ دوراً مهمّاً بعد وفاة محمد.

– وكيف أصبح محمد زعيم ديانة؟

– لم يعرف ذلك مسبقاً. فقد كان رجلاً خجولاً وحسّاساً، وربما أحسّ أنّه مختلف عن الآخرين. وكان من عادته أن يقصد الجبال في محيط مكّة فينعزل في مغارة ليفكّر ويتمعّن في الحياة والطبيعة، وفي الخير والشرّ. كان يتأمّل.

– ماذا يعني "التأمّل"؟

– هو التفكير عميقاً سعياً إلى إيجاد معنى للحياة. في القديم كان هذا الفعل يعني "معالجة المرضى". ولا بدّ من أن محمّداً كان يسعى في السكون والوحدة إلى إيجاد علاج للحياة حيث البعض فقراء وآخرون أثرياء، والبعض في صحّة جيدة وآخرون ضعفاء ومرضى.

– وماذا كان بإمكانه أن يفعل للناس البؤساء؟

– لقد فكّر وفتّش عن وسيلة للتخفيف من بؤسهم.

وفي أحد الأيّام، أو بالأحرى في إحدى الليالي، وفيما هو في مغارة في جبل حراء (غار حراء) حلّت عليه "رؤيا" أي تراءى له ضوء ساطع وباهر، هو أحد كبار الملائكة الذي أمره قائلاً: "اقرأ". لكنّ محمّداً الذي كان آنذاك في الأربعين من عمره، أجابه: "ما أنا بقارئ!". لا ننسيَنَّ أنّه لم يتعلّم في مدرسة وبالتالي لم يكن يقرأ ولا يكتب. فطلب منه الملاك، وهو الملاك جبريل، أن يكرّر وراءه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. وكرّر محمّد، مضطرباً مرتجفاً، هذه العبارات من وراء الملاك جبريل.

– ماذا تعني كلمة "علق"؟

– هي تعني "مادّة دبقة"، وقد فسّر بعضهم الكلمة على أنّها "نقطة دم متخثّرة". وفي الحقيقة هي تعني سائل لزج مركّب من الحيوانات المنويّة ويُسمّى "المنيّ" الذي بواسطته يتناسل البشر.

– وما "القلم"؟

– هو القصبة التي تُستعمل لصناعة قلم أو ريشة للكتابة.

– وماذا فعل بعد ظهور الملاك عليه؟ هل خاف؟

– أحسّ باضطراب شديد. كان محمّد رجلاً عاديّاً لكنّه كان ذكيّاً وخشي أن يقع في شرك ينصبه له إبليس. وعندما عاد إلى منزله باح بما حدث له لزوجته خديجة التي قصدت عالماً مسيحيّاً في مكّة يدعى ورقة بن نوفل وسألته عن رأيه في ما جرى وطلبت نصيحته. أجابها هذا الفقيه الحكيم بأنّ محمّداً هو النبيّ المنتظر، إذ إن الله وعد بأن يبعث إلى البشر رسولاً هو خاتم الأنبياء، رجل يكلّم أبناء جنسه ويعلّمهم ما يمليه عليه النور الحيّ.

– لماذا لا يكلّم الله البشر مباشرة؟

– فضّل الله أن يختار رجلاً بسيطاً وصالحاً ليحمّله رسالاته ويكلّفه بتكرارها على البشر. وقد تلقّى محمّد "الوحي" عبر هذا النور الحيّ والباهر.

– ما هو "الوحي"؟

– هو ما ينكشف ويصبح واضحاً، مثل الحقيقة عندما

نفتّش عنها وتنكشف لنا فيقال: "انجلت الحقيقة". لقد بشّر محمّد بكلام الله الذي جمعه على مدى سنوات بعض صحابته ليشكّل كتاباً، هو القرآن، كتاب المسلمين.

– ماذا تعني كلمة "قرآن"؟

– الكلمة مشتقة من المصدر العربيّ "قراءة" الذي يعني "قرأ وتلا". على مدى ثلاث وعشرين سنة نزل هذا الكتاب الفريد من نوعه على محمد جملة بجملة سُمّيت لاحقاً "آيات"، ثمّ فصلاً بفصلٍ سُمّي الواحد منها سورة. ودوماً نزلت رسالة الله على محمّد بواسطة الملاك جبريل الذي كان يظهر له على شكل نورٍ عظيم باهر.

– وماذا قال جبريل لمحمد؟

– قال له إنّ هناك إلهاً واحداً هو الله العليّ القدير والرحمن الرحيم. وقال له إنه يجب اتّباع كلام الله والإيمان برسالته، وإن هناك حياة أخرى بعد الموت يحاسَب فيها الإنسان بحسب أعماله وإن كلّاً من أبناء البشر سيُجازى بما فعله في حياته، وإن الناس الصالحين والمستقيمين سيكافأون بدخولهم الجنّة فيما الآخرون الفاسدون والكفار والمجرمون سيحاكمون ويُرسلون إلى الجحيم. قال له إنه

يجب فعل "الخير" وتفادي "الشرّ" والتحلّي بالحكمة والإيمان، وخاصّة عدم عبادة الأوثان والإيمان بأن لا إله إلا الله.

– لكن معلمتنا، وهي مسيحيّة، تعملّنا التعليم نفسه!

– تعرفين كما حكيت لك أنّه قبل مجيء ديانة محمّد كانت هناك ديانتان أُخريان، اليهودية والمسيحية، وكلتاهما تعبد إلهاً واحداً ولها أيضاً أنبياؤها منهم موسى وعيسى المسيح، ويُفترَض باليهود والمسيحيين والمسلمين أن يشكّلوا "جماعة واحدة من المؤمنين". جاء الإسلام لينضمّ إلى هاتين الديانتين، وهي تسمّى الديانات التوحيدية أو أهل الكتاب، لأنّ لليهود كتاباً هو "التوراة" وللمسيحيين كتابهم وهو الإنجيل وكتاب المسلمين هو "القرآن".

– توحيد... أعرف ما معناها، المقصود "واحد"!

– نعم، بالضبط. التوحيد يعني القول بإله واحد.

– إن كنّا نؤمن بالإله نفسه فلماذا الحرب قائمة بين المسلمين واليهود؟

– يختلط الأمر عليك، فالمسلمون واليهود يتنازعون على ملكية أرض واحدة وليست بينهم حرب دينية. فالإسلام

يعترف بأنبياء اليهود والمسيحيين.

– يعترف بهم، كيف ذلك؟

– على المسلمين الذين يدينون بالإيمان والاحترام لنبيّهم محمد رسول الله، أن يدينوا بالاحترام نفسه لموسى والمسيح. يجب ألّا تنسي أن الإسلام جاء بعد ستة قرون من مجيء المسيح، وهو بالتالي الديانة التوحيدية الأخيرة في تاريخ البشرية.

– وكيف ينظر المسيحيون إلى المسلمين؟

– القصّة طويلة، لكن اعلمي أنه في عام ١٩٦٥ عُقد في الفاتيكان في روما، حيث مقرّ البابا، مؤتمر ضمّ كبار رجالات الكنيسة واعترفوا فيه بأنّ "في الإسلام قِيَماً مهمّة جداً". ويسمّى هذا الاجتماع "المَجْمَع الفاتيكاني الثاني".

– أوضِح لي لماذا سُمّي ما جرى مع النبيّ محمّد "الإسلام" أو "الديانة الإسلامية"؟

– في كلمة "إسلام" هناك جذر "سلام"، فالإسلام هو اتّباع الإنسان للسلام والخضوع لإله واحد إله ندين له بالطاعة والصدق والاستقامة.

– وكيف يمكن طاعة شخص لا يُرى؟

– عندما كنت صغيراً قيل لي إنّ الله عليم بكلّ شيء يسمع ويرى كلّ شيء. فسألت أمّي: "حتى أنا الصغير والهزيل جداً يراقبني ويراني؟" فأجابتني: "تماماً فهو كلّي القدرة يراك وإذا ارتكبت الحماقات فلن يسرَّ منك". وفي أحد الأيّام سرقت قطعة حلوى واختبأت في صندوق لأكلها بعدما قلت في نفسي: "هنا لن يراني الله!". وقد أصابني ألمٌ في معدتي لأنّني ازدردت قطعة الحلوى من دون مضغ!

– إذا اختبأت جيّداً لا يمكن الله أن يراك!

– بالعكس تماماً، الله قادر حتّى على رؤية ما هو خفيّ.

– وهؤلاء الناس الأشرار الذين يخوضون الحروب ويقيمون الصلاة في الوقت نفسه ويقولون إنّهم يعبدون الله، هؤلاء أشرار.

– يسمّيهم الله "المنافقين". وقد أوحى الله إلى النبيّ محمّد بسورة كاملة عن المنافقين يدينهم فيها.

– اشرح لي ما المقصود بـ"المنافق".

– يقال إنّه ذاك الذي له وجهان، فهو من جهة يشوّه الحقيقة فيما يوهمك بأنّه يقول الحقيقة. المنافق خائن ودجّال.

اليوم الثالث

– فلنعد إلى تاريخ نشأة الإسلام.

– لكن قبل مواصلة الحديث قل لي بأيّ لغة تكلّم الملاك، ما قلت إنّه النور الرائع الذي أحاط بالنبيّ محمد؟

– اللغة العربية.

– هل الله عربيّ إذاً؟

– كلا، لا هو عربي ولا صيني ولا أفريقي ولا هندي. الله هو ربّ البريّة جمعاء من دون استثناء، وهو لا يميّز بين أبناء البشر، هذا ما ورد في رسالته.

– لماذا إذاً لم يتكلّم الانكليزية لكونها اللغة التي يحكيها العالم كله تقريباً؟

– هو تكلّم بلغة البلاد حيث عاش رسوله محمّد. أخبرتك أنّ النبيّ وُلد في الجزيرة العربية، وأنّه كان يتكلّم اللغة العربية، وهذا ما جعل العرب يعتبرون أن لغتهم هي لغة الله.

– وهل هي اللغة نفسها التي ينطق بها أجدادي في المغرب؟

– ليس كلّياً. في المغرب تُحكى العربية باللهجة العامية وذلك بالمقارنة مع العربية الفصحى، لغة الكتب الكلاسيكية

أو اللغة الأدبية. لكن عندما يصلّي أجدادك فهم يتلون آيات القرآن بالعربية الفصحى.

– وماذا عن المسلمين من غير العرب، كيف يصلون؟

– هم يحفظون الصلوات غيباً ويقولونها من دون أن يفهموا كلّ الكلمات التي يستعملونها. هم من الناحية المبدئيّة يعرفون معناها. أمّا غير الناطقين باللغة العربية فهم يقرأون القرآن مترجَماً إلى لغتهم.

– وكيف نجح النبيّ محمد في جعل الناس يصدّقون قصّته؟

– بعد زوجته التي أدركت فوراً أنّ ما يقوله صحيح جاراه ابن عمّه عليّ بن أبي طالب واعتنق الإسلام، وتبعه أبو بكر صديقه المقرَّب وهو رجل محترم جداً ثمّ زيد ابنه بالتبنّي ثمّ بلال خادم أبي بكر الأسود. كان بلال عبداً، وقد أعتقه محمّد، أي أعاد إليه حرّيته، ولأنّه كان ذا صوت جميل جداً كلّفه الدعوة إلى الصلاة خمس مرّات يوميّاً، فكان المؤذّن الأول في الإسلام. بعدها استغرق الأمر بضع سنوات من النضال لكي ينضمّ إليه أبناء قبيلته.

– هل كان هناك عبيد؟

– نعم، فالعبودية وُجدت في كلّ المجتمعات. وقد أراد النبيّ محمّد، بتحريره بلالاً، أن يعطي مثلاً يقتدي به كلّ من كان عندهم عبيد. لكن للأسف لم يتمثَّلوا به.

– ألم يكن الناس متوافقين معه؟

– كلا، ليس الجميع، وقد حورِب حتى من داخل قبيلته.

– هو لم يتسبّب بالأذى، أليس كذلك؟

– كلا فهو رجل صالح، لكن كما تقول الأغنية إنّ "الناس لا يحبون تغيير مجرى حياتهم".

– لقد دعاهم إلى عمل الخير وعدم الخيانة...

– نعم، لكن ما يجب أن تفهميه هو أنّه قبل قصّة الوحي هذه، قبل أن يصبح محمد رسول الله، كان الناس في الجزيرة العربية يعيشون على هواهم، لا قوانين صارمة يتّبعونها. ومن جهة أخرى كانوا يؤمنون ببعض الأوثان الحجرية على أنّها آلهة، فجاء محمد وقال لهم إنّ الله هو الحقّ، الله هو العدل، الله هو الروح، ويجب أن نعيش معاً بأخلاقية وروحانية، يجب أن نعبد الله غير المتجسّد في مادّة، وهناك الجحيم والجنّة، وليست ثروات هذا العالم بمهمّة، ودعاهم إلى الصلاة خمس مرّات يومياً وإلى التأمّل

والإيمان بالله الرحمن الرحيم، إلخ.

– ولم يصدّقه الناس...

– كلا، لم يصدّقوه في الحال، لكونه جاء يقلب أعرافهم، ولذلك حاربوه. وإذّاك نزل حكم الله فيهم في إحدى آيات القرآن: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، الآية ٥).

– المشركون هم الذين لا يؤمنون بإله واحد، أليس كذلك؟

– هم الذين يؤمنون بآلهة متعدّدة من أوثان وأصنام.

– وماذا فعل النبيّ محمّد؟

– مرّ محمّد بأوقات عصيبة. ففي عام ٦٢٠ فقد زوجته وعمّه أبا طالب، والده بالتبنّي، ووجد نفسه وحيداً في حربه مع أبناء قبيلته الساعين إلى قتله، فهجر مكّة مع أبي بكر وعليّ، واختبأوا في مغارة للإفلات من المقاتلين الذين لاحقوهم للقضاء عليهم. ورغم أنّه ليس في الإسلام معجزات كما في الديانتين التوحيديتين الأخريين، يُروى أن بيت عنكبوت قد ظهر على باب المغارة فحمى محمّداً وصحبه.

– الآن أدركت لماذا تطلب منّي عدم قتل العنكبوت! هو حيوان مقدّس!

– مهما يكن فقد نجا النبيّ بفضل بيت العنكبوت هذا. انتقل بعدها إلى مدينة أخرى، يثرب التي عُرفت بعدها بالمدينة المنوّرة حيث نعم بالأمان. وفي سنة ٦٢٢ هذه يبدأ التأريخ الإسلامي، إذ اعتُبرت السنة الأولى للهجرة. ونحن حالياً في العام ١٤٣٢ للهجرة.

– وما هي الهجرة؟

– هي مشتقّة من فعل "هجر" أي انتقل إلى مدينة أخرى أو بلدٍ آخر.

– النبيّ محمد مهاجرٌ إذاً!

– نعم فقد اضطرّ إلى الفرار ليتسنّى له الاستمرار في تلقّي رسائل الله ونقلها، وبذلك بدأ التأريخ الإسلامي في روزنامة تعتمد التقويم القمريّ، أي ظهور القمر. ولذلك لا يُعلم أبداً مسبقاً موعد بدء الشهر تحديداً. ومن المدينة انتظم الإسلام شيئاً فشيئاً وأرسى وصاياه الخمس المسمّاة "أركان الإسلام الخمسة". "الركن" تعني الأساس أي ما يقوم عليه البناء.

– وما "الوصايا"؟

– المقصود بها قواعد وتوصيات وأوامر.

– وما هي القواعد التي يتبعها المسلمون؟

– هي خمس وباتّباعها يصبح الانسان مسلماً. الأولى هي "الشهادة" أي إعلان الإيمان، وهو أن تسلّمي في قرارة نفسك بفكرة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله. يجب تلاوة هذه العبارة، وهي التي يتلفّظ بها كلّ مسلم ساعة موته، فيقال "نطق بالشهادة"، إذ يرفع سبابة يمناه ويقول: "أشهَدُ ألّا إلهَ إلّا اللهُ وأنّ محمّداً رسولُ الله".

– وأنت تعرفها باللغة العربية؟

– نعم!

– وهل يمكن قولها في غير ساعة الموت؟

– بالتأكيد.

– وهل أنتَ تتلوها غالباً؟

– يحدث لي ذلك.

– وكيف لي أن أتأكّد من ذلك؟

– هذا ما يُسمّى الإيمان، أي أن تكوني على يقين وقناعة ثابتة: لا أحد يمكنه أن يبرهن لك عكس ما تؤمنين به. بالنسبة إلى المسلمين يجب النطق بها وخاصّة عدم الشكّ فيها.

– وهل يجب قولها باللغة العربية أم يجوز قولها بأيّ لغة أخرى؟

– وما همّ اللغة؟ المهمّ هو أن تكوني مقتنعة بهذه الأقوال.

– وعلى افتراض أنني غير مقتنعة، ماذا يحدث؟

– لا تكونين مسلمة، هذا كلّ ما في الأمر.

– وما القاعدة الثانية؟

– "الصلاة". هناك خمس صلوات في اليوم، الأولى صلاة الصبح مع طلوع الفجر، والثانية عند الظهر، والثالثة صلاة العصر، والرابعة صلاة المغرب وأخيراً صلاة العشاء. وتقام كلّ هذه الصلوات بالتوجّه إلى القبلة، أي إلى مكّة المكرمة.

– وهل نحن ملزمون بأدائها عند دعوة المؤذّن إلى الصلاة؟

– من الناحية المبدئية نعم. ويمكن لمن يعمل أو من هو مريض أن يؤجّلها إلى وقتٍ آخر، أمّا المعوّق فيكمنه الصلاة ذهنيّاً.

– ذكرت من قبل "الوضوء"، هل يمكن أن تحدّد لي لماذا نفعل ذلك وكيف؟

– في الصلاة يُفترض أننا نتوجه إلى الله، لذا جيب أن نكون نظيفين. والوضوء هو الاغتسال قبل الصلاة تماماً. لكن

انتبهي، هناك نوعان من الوضوء، الكامل وهو غسل الجسم بأكمله بعد القيام بعلاقة جنسية، والوضوء البسيط الذي يقضي بغسل الوجه والساعدين واليدين والرجلين.

– أن يغتسل المرء خمس مرات يوميّاً يعني أنّه بطل النظافة!

– الحقّ معك، فالنبيّ محمد قال إنّ النظافة من الإيمان.

– وما الكلام الذي يُتلى عند أداء الصلوات؟

– تمجيد الله ونبيّه، وتُتلى السورة الأولى من القرآن.

– تلك التي قال فيها الملاك لمحمّد: ﴿اقْرَأْ﴾؟

– كلا، فالقرآن ليس مكتوباً بحسب ترتيب نزول الآيات، فهو يبدأ بسورة "الفاتحة". وفي كلّ صلاة لا يُذكر ويمجّد النبيّ محمد وحسب، بل سائر الأنبياء أيضاً، إبراهيم وموسى وعيسى.

– وما هو الركن الثالث؟

– هو "صوم رمضان"، وفي خلال هذا الشهر يمتنع المسلم عن الأكل والشرب من الفجر حتى الغروب، وبذلك يتمرّس بالجوع والعطش ويمتحن إرادته في مقاومة التجارب وقدرته على التأمّل في الحياة والآخرة. وعليه في هذا الشهر أن يكرّس نفسه للخشوع والصلاة والنظر في سلوكه في هذه

الحياة. ويتوّج شهر رمضان بعيد يسمّى "العيد الصغير".

– وهل يجب على الجميع التزام الانقطاع عن الأكل والشرب؟

– كلا. فليس على الأولاد غير البالغين وعلى المرضى أن يصوموا، ولا على المرأة في خلال دورتها الشهرية.

– وما الركن التالي؟

– "الزكاة"، يقتطع المؤمن نسبة معيّنة من المال الذي كسبه طوال العام ويوزّعه على الفقراء والمحتاجين وذلك في نطاق من السرّية إذ لا ينبغي التباهي ولا كشف الفقراء بغية إذلالهم. يجب مساعدة الناس الذين يعيشون في حالة عسيرة.

أمّا الركن الأخير أو القاعدة أو المبدأ فهو "الحجّ" إلى مكّة المكرّمة (ويُعفى منه مَنْ لا إمكانيات مادية أو جسدية لهم). على المسلم أن يقوم بالرحلة إلى مكّة والمدينة لكي يصلّي أمام قبر النبيّ ويطوف حول الكعبة والسعي إلى التماس الحجر الأسود الشهير. ويكون موسم الحج في كلّ سنة في زمن عيد "الأضحى" إحياءً لذكرى أضحية خليل الله إبراهيم الذي كان على وشك التضحية بابنه فإذا الله يرسل إليه خروفاً

يذبحه بدلاً من ابنه. وهو عيد شعبيّ جداً، وهو بالنسبة للكثير من الناس مناسبة لأكل اللحم.

– وهل الامتناع عن أكل لحم الخنزير قاعدة أيضاً؟

– يقول الإسلام بعدم أكل لحم الخنزير لأنّ هذا الحيوان يأكل من كلّ القذارات التي تُرمى في القمامة.

– لكن في أيّامنا هذه تربّى الخنازير بطريقة نظيفة مثل الغنم.

– نعم، لكن يبقى من الصعب جداً التراجع عن شريعة دينية. أمّا المحظور الآخر فهو الخمر. هناك ثلاث آيات نزلت في ثلاث محطات زمنية حرّمت تعاطي الكحول. فمَن يثمل يفقد السيطرة على نفسه. والحال أنّ الإسلام يشدّد على ضبط النفس كما على حرّية الإنسان لكي يكون مسؤولاً عن تصرّفاته.

– هل بالامتناع عن شرب الخمر يكون الإنسان حرّاً؟

– تقتضي الحرّية أن يكون الإنسان مخيّراً، وبإمكان المرء أن يشرب الكحول أو يمتنع عن ذلك، لكن إن شرب وثمل فهو وحده مسؤول عمّا يقدِم عليه.

– وهل هناك محظورات أخرى؟

– نعم، هناك لعب الميسر والكسب عبر الربا. لكنّ هذه

المحظورات أقلّ تطبيقاً، إذ يعتبرها الناس أقلّ فداحة من غيرها. محظور آخر يضاف إلى ذلك وهو أنّه لا يحقّ للمرأة المسلمة أن تتزوّج بغير مسلم إلا إذا اعتنق الإسلام.

– لكن، على ما أظنّ، يحقّ للرجل المسلم أن يتزوّج بغير مسلمة!

– نعم يحقّ لهم الاقتران بغير المسلمات.

– ليس هذا عدلاً!

– هذا بسبب الاسم الذي ينتقل عبر الأب. فالأمر يتعلّق بمجتمع يهيمن فيه الأب أي ربّ العائلة، وهو يسمّى مجتمعاً بطريركياً تكون المرأة فيه خاضعة ومرتهنة للرجل وبالتالي قابلة للتأثير. فإذا تزوجت بغير مسلم فقد يخسرها الإسلام وقد يربّى أولادها في ظلّ ديانة الوالد.

اليوم الرابع

– استفاد النبيّ محمّد من إقامته في المدينة حيث لجأ وحظي بالأمان لينظّم معركته بغية اجتذاب أكبر قدر من الناس إلى الإسلام ولكي تتشكّل جماعة متضامنة من الناس تُجمع على الإيمان بالله الواحد. وقد حارب النبيّ محمّد القبائل

التي هدّدت المسلمين وعمل على أن يحمل حتى أعداءه على اعتناق الإسلام، مثل أبي سفيان، شيخ القبيلة التي ناصبته العداء. وقد برهن محمّد، بحسب روايات شهود من معاصريه، على أنّه رجل عمليّ وقائد عسكريّ وزعيم سياسيّ. وقد وقعت معركتان مهمّتان، هما بدر ثمّ أُحد. ومعه نشأ مفهوم "الأمّة الإسلامية"، والأمّة هي الجماعة أي مجمل المسلمين. في عام ٦٣٢ قدم محمّد إلى مكّة لأداء الحجّ والطواف حول الكعبة. ويُروى أنه فيما هو يغادر التفت إلى الكعبة وقال بما معناه: ما أجمل هذا البيت! لكن ليس ما هو أعظم ولا ما هو أجمل من عزة الإنسان!

- وما هي "العزة"؟

- هي تعني احترام الذات والإحساس بالتزام القيم والصفات التي تجعل الإنسان يفخر بإنسانيته. وبالعكس فإنّ الهوان، أي الدناءة، فهو انعدام كلّ قيمة وتمنّع الإنسان عن التحلّي بالعدالة والجرأة. وقد قدَّم النبيّ الكرامة على جمال الكعبة، وهو ما يدّل على الأهمّية التي أولاها لهذه الصفة التي يجب أن يتحلّى بها كلّ إنسان.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

– أحسّ أنّ الله سيتوفّاه وأنّ مهمّته أُنجزت، فعاد إلى المدينة حيث تُوفّي في الثامن من شهر حزيران/يونيو عام ٦٣٢.

– ومن حلّ مكانه؟

– لا أحد. فهو نبيّ وآخر رسل الله، أرسله الله إلى البشر ثمّ رفعه إليه. وصار أبو بكر، وهو صديقه ومن صحابته، يترأس الصلاة باسم كلّ المسلمين. وقد اختاره قسم من الشعب "خليفةً" للنبيّ، أي زعيماً على المسلمين الذين اتّبعوا الشرائع التي خلفها محمّد. وهؤلاء هم المسلمون السنّة. وقد فضّل آخرون عليه الإمام عليّاً، ابن عم النبيّ، وهم المسلمون الشيعة. وقد وقعت المواجهة بينهم وبين السنّة عندما أراد عليّ أن يتولّى الخلافة. واليوم يشكّل الشيعة نسبة عشرة في المئة من مسلمي العالم، وهم يتميّزون عن السنّة بكونهم يتبعون ممثلين عنهم يُسمّون "أئمّة".

– شاهدت على التلفزيون بعض المسلمين يلطمون صدورهم، أهذا طبيعي؟

– هؤلاء من الشيعة، وهم بذلك يعبّرون عن ألمهم بإيذاء أنفسهم.

– أيّ ألم؟

– عندما قُتل إمامهم الحسين، وهو أحد أبناء عليّ، في معركة كربلاء، اعتبر الشيعة أنفسهم مذنبين لأنّهم لم يحموه ولم ينقذوه. ولذلك يحيون سنوياً هذه الذكرى تعبيراً عن حزنهم. وبعضهم يبالغ في معاقبة نفسه بالضرب بشدّة حتّى يدمي نفسه أحياناً.

المهمّ أنّه منذ تلك الفترة بدأ الإسلام ينتشر في المنطقة وخارجها. وبعد حوالى عشرين عاماً من موت النبيّ محمّد جمع عثمان، الخليفة الثالث، السور الـ١١٤ التي تألّف منها القرآن، الكتاب المقدّس وكلام الله.

– هل قرأت القرآن؟

– عندما كنت في سنّك، وحتى قبل إدخالي المدرسة الابتدائية ارتدت على مدى سنتين المدرسة القرآنية حيث كانوا يحفّظوننا القرآن غيباً. حتى قبل أن أتعلّم القراءة كان عليّ أن أحفظ الآيات الواحدة تلو الأخرى لأسمّعها في اليوم التالي، وإذا ما أخطأت أعاقب بضربة عصا.

– ألم يكن لأهلك ردّة فعل؟

– ما كانوا يعلمون بما جرى. وكنت أبذل كلّ مساء جهوداً كبيرة لكي أحفظ الآيات التي عليّ تسميعها في الغداة.

– وهل كنت تفهم ما تحفظه غيباً؟

– ليس كلّ شيء. كنت أعرف أنّه يجب عبادة الله، الإله الواحد، ويجب فعل الخير وعدم الكذب ولا السرقة وطاعة الوالدين واحترام معلم المدرسة وإقامة الصلاة وإلا عاقبنا الله. وأحياناً كنت أرتعب خصوصاً عندما يكلمنا الله عن الجحيم وعن يوم القيامة. لكن بعد هذا الكلام تماماً ترد آيات تذكّرنا بأنّ الله رحيم ويغفر للمخطئين.

– ما أكثر ما أخافك؟

– عندما وصف لنا معلّم المدرسة القرآنية ما ينتظر الرجل الذي يقتل نفسه، أي ينتحر متحدّياً إرادة الله. ولمعلوماتك، إنّ الذي ينتحر بحرق نفسه يكرّر فعلته هذه إلى الأبد في الجحيم، والذي يرمي نفسه عن مبنى يظلّ يرتمي إلى ما لا نهاية. إنّه لأمر مروّع! وهذا يصدّقه الإنسان إن كان مؤمناً.

– إذاً بالعودة إلى ما يحدث في أيّامنا، فإنّ الله سيعاقب أولئك الذين قتلوا الأميركيين؟

– على ما أظنّ.

– لماذا، ألست واثقاً من لك؟ أليس كلّ ما أخبرتني إيّاه صحيحاً؟

– كلّ ما أخبرتك إيّاه صحيح وهو جزء من تاريخ البشرية. أمّا في ما يتعلّق بالله فقد يحدث أن يطرح الواحد بعض التساؤلات خصوصاً عندما يشاهد أشكال المعاناة والمظالم والبؤس التي تسود العالم. فالمسيحيّون يقولون إنّ "الله محبّة" والمسلمون يقولون إنّ "الله هو العدل، والله هو الحقّ" فيما الحروب تمزّق العالم وبعض الشباب يرفضون الحياة ويضحّون بأنفسهم ليقتلوا أناساً أبرياء باسم الإسلام، عندها تطرح التساؤلات، ومن الطبيعي التساؤل، فالحيوانات وحدها لا يراودها الشكّ.

– ما المقصود بـ"الشكّ"؟

– يقوم الإيمان الديني على عقيدة. والتسليم بعقيدة يعني قبول الكلام المطروح وتصديقه والالتزام به. والديانات لا تتحمّل الشكّ ولا الاستخفاف. أمّا الشكّ فهو عدم الإيمان إيماناً أعمى وهو يفترض اعتماد المنطق في ما يدخل في مجال المعتقد. والشكّ هو طرح الأسئلة على أمل الحصول على إجابات شافية. ما يعني أنّ المنطق والمعتقد لا يتماشيان.

– ماذا عنك، هل أنت مؤمن؟

– ليس من السهل على من يتحلّى بالمنطق أن يكون مؤمناً

كما يتصوّر أصحاب الإيمان العاديّون. وجواباً عن سؤالك لنقل إنني أعتقد بوجود روحانية ما، شيء سرّي وجميل يثير فيّ رهبة شديدة. يمكن أن نسمّيه الله. وأحسّ نفسي ضئيلاً جداً أمام عظمة الكون ولست أهلاً لفهم كلّ شيء. وبحسب أحد الفلاسفة "إن الذكاء هو عدم فهم العالم".

– لم أفهم شيئاً.

– يجب أن نحذر الناس الذين يزعمون أنّ عندهم إجابات عن كلّ الأسئلة التي يطرحها الإنسان، وأقصد المتعصّبين تحديداً لأنّهم يرون أنّ الدين يجيب عن كلّ تساؤلات العالم، وهذا مستحيل.

– حتى في الإسلام؟

– تعرفين أنّ هذه الديانة قد أعطت العالم حضارة باهرة وثقافة غنيّة جدّاً. وما تتميّز به هذه الديانة هو أنّه ليس فيها كهنة ولا مطارنة ولا بابا. ليس فيها وسيط بين المؤمن والله.

– بحسب علمي إنّ عند الكاثوليك كهنة لا يحقّ لهم الزواج!

– نعم. وفي المدرسة الثانوية كنت أستغرب كيف أن زملائي يذهبون أيّام الآحاد للاعتراف عند الكاهن في الكنيسة، فأقول

لهم: "لكن عليكم التحدّث مع الله، وإليه تتوبون إذا ارتكبتم أيّ عمل سيّئ"، فيجيبونني بأن هذه هي عقيدتهم.

– أي إنّه ليس في الإسلام اعتراف.

– كلا. والحضارة الإسلامية، قبل أن يشوّهها كما يحدث اليوم أناس أصابهم الجنون أو بعض الجهلة، بلغت على مدى ثلاثة قرون، ما بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر أوج التقدّم والثقافة في العالم.

اليوم الخامس

– لكي أخبرك عن هذا العصر الرائع، المعروف بـ"عصر العرب الذهبيّ"، وقبل أن نتحدّث عن الوضع الحالي الذي هو في منتهى السوء كما تعلمين بالنسبة إلى الدول العربية والإسلامية، سأطلب منك أن تتخيّلي حلماً تدخلين فيه عالماً رائعاً يسوده السلام والحكمة والانسجام بين الناس، والفضول لمعرفة كلّ ما هو مختلف، عالم فيه الأولاد سعداء لذهابهم إلى المدرسة لأنّهم يحفظون وحسب الآيات القرآنية غيباً، لكن سرعان ما يبدأ تعليمهم اللغات الأجنبية والموسيقى وحتى العلوم.

– سأغمض عينيّ وأنساق مع حكايتك!

– حضّ الدين الإسلامي العرب على نشر الرسالة السماوية في العالم، فوصلوا إلى الشرق الأوسط (سوريا ومصر والعراق، المسمّاة الهلال الخصيب وبلاد ما بين النهرين)، وإلى آسيا وبلاد فارس والمغرب. ولم تتحقّق هذه الفتوحات دوماً بطريقة سلميّة، بل وقعت معارك وقامت مقاومات وسقط قتلى. وهذا أمر طبيعي إذ إنّ الجيوش العربية كانت تحتلّ البلدان من دون موافقة سكّانها. وغالباً ما كانت هذه الجيوش تقيم قرب الواحات والأنهار في معسكرات يجري فيها التحضير لحملات جديدة. كما وقعت النزاعات داخل الجماعات المسلمة. وشيئاً فشيئاً، وبفضل توسّع الإسلام تحقّقت للعرب إمبراطوريتهم. وقد تطوّرت الحضارة العربية واغتنت لأنّها عرفت كيف تنفتح على العالم، فحلّت لغة القرآن مكان اليونانية والفارسية لدرجة أنّ أحد المؤرّخين الفرس من القرن العاشر قال: "باتت اللغة العربية مستودعاً لكلّ فنون الأرض، وهي تتغلغل في قلوبنا وتأثيرها يفتننا حتى أقصى مكنونات كياننا...".

– ماذا تعني "مستودع"؟

– في هذه العبارة هي تعني أنّ اللغة العربية تحوي كلّ الفنون، وبها تنشأ الأعمال الفنية مثل الشعر والعلوم والطبّ، إلخ. أي كلّ ما يساعد في تطوير البشرية وتحسينها.

– أيعني ذلك أنّ العالم كله كان يتكلم العربية؟

– كلا، ليست كلّ البلدان، إلّا أنّ اللغة العربية في ذلك العصر بأهمّية اللغة اليونانية في تاريخ العصور القديمة.

– لا فكرة عندي عن أهمّية اللغة اليونانية في العصر القديم، لكنّي أفترض أنّ العربية كانت تُعلَّم في كلّ المدارس لا كما هي الحال اليوم.

– كان الجميع يتعلّمون اللغة العربية لأنّ العلماء المسلمين العرب قاموا بعمل جبّار بترجمتهم كلّ النتاجات المهمّة التي صدرت في اللغات الأخرى. فهم ترجموا كتب الفلسفة اليونانية وبعض الأعمال الفارسية والهندية...

– اشرح لي قليلاً عن "الفلسفة".

– المقصود بها حبّ الحكمة والمعرفة. تعلِّم الفلسفة التفكير عبر دراسة كلّ ما اكتشفه القدامى ودوّنوه. هي اعتماد المنطق بغية التفكير بمنهجيّة ومعرفة مجرى الحياة.

– حسناً لنقل إنني فهمت!

– أشدّد على القول إنّ الفلسفة هي دراسة ما نفكّر فيه. ولذلك يكون العرب، بترجمتهم الدراسات الفلسفية اليونانية ونشرها، قد قدّموا خدمة كبيرة للإنسانية. فبفضل العرب اكتشف العالم كله ما عند كبار الفلاسفة الإغريق. فاحتلّت اللغة العربية الصدارة في كلّ مكان. فالعلوم والطب والرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك، كل ذلك كان يُعلَّم باللغة العربية. والنبيّ محمّد، الذي لم يتسنَّ له التعلّم في مدرسة، حضّ كلّ مسلم على طلب العلم حيثما توفَّر في العالم.

– عندما كان المسلمون يحتلّون بلداً هل كان الناس يُرغمون على تعلّم العربية؟

– ما كانوا مرغمين، لكن في ذلك العصر من أراد أن يدرس وأن يتوسَّع في الدراسة ويتعلّم الكثير من الأمور كان عليه أن يعرف اللغة العربية. فلغة الإسلام فرضت نفسها في العالم كلغة أولى محكيّة ومكتوبة. وابتداءً من القرن التاسع باتت العربية لغة العلم، من إسبانيا إلى الصين، وصارت الأبحاث العلمية التي تفضي إلى الاكتشافات تُجرى باللغة العربية سواء في بغداد أو دمشق، في القاهرة أو غرناطة، في باليرمو أو سمرقند. وفي كلّ مكان أنشئت جامعات وفتحت مكتبات

سُمّيت "بيوت الحكمة".

- وما هو "بيت الحكمة"؟

- هو مركز يجتمع فيه الناس الراغبون في التعمّق في دراساتهم وفي التداول مع أشخاص أكثر ثقافة منهم وأكثر خبرة، وحيث يتوفّر كل شيء للحصول على العلم والمعارف.

- وهل كان الناس يقصدونها؟

- نعم، كان هناك تعطّش إلى التعلّم وحماسة للدراسة. كان الناس يكتشفون العالم ومختلف الحضارات واللغات.

- ومن كان يشجّع على الترجمة والدراسة؟

- الخلفاء، أي رؤساء البلاد، أولئك الذين عملوا على نشر الإسلام. لكن كان الأثرياء أيضاً يقدّمون المال من أجل ترجمة الأعمال المهمّة وإنشاء بيوت الحكمة، أي الثقافة.

- إن كان العالم كله يتكلّم الأوروبية فهل هذا يعني الأوروبيين أيضاً؟

- كلا، لأنّ الأوروبيين استفادوا من الاكتشافات والترجمات التي حقّقها العرب ليعملوا على ترقية حضارتهم الخاصّة.

- ما كانت عاصمة هذه الامبراطورية العربية؟

– بغداد، المدينة الرئيسة في العراق. أشهر الخلفاء كان يُدعى هارون الرشيد، وهو الذي رُويت الحكايات عنه في كتاب **ألف ليلة وليلة** عاش في أوائل القرن التاسع. وكان من شأن بغداد أن صار علماؤها وطلابها يسافرون إلى الخارج سعياً وراء المخطوطات العلمية والطبّية والفلسفية بغية ترجمتها إلى اللغة العربية.

– وهل اكتفى العرب بترجمة الكتب وحسب؟

– كلا، لقد ألّفوا وأجروا الأبحاث العلمية والطبّية مثلاً، وبنوا الجامعات و"المدارس" الدينية والمكتبات والمساجد والقصور، إلخ. لكنّ الاهتمام بالترجمة يعني أنّ العرب لم يعتبروا أنفسهم علماء ما عادوا بحاجة إلى مزيد من التعلّم. بل بالعكس فإن المثقّف هو الذي يقول إنّ بالإمكان التعلم دوماً من الآخرين. أرادوا أن يطلعوا على ما يفكرّ فيه غير المسلمين وغير العرب وعلى ما يفعلونه في مجالات العلوم والآداب والهندسة المعمارية والتجارة...

– هل تشرح لي كيف تكون الترجمة...

– ليس النقل من لغة إلى أخرى بالأمر السهل. فالمفروض نقل المعنى المناسب لما هو مكتوب في لغة ما إلى لغة أخرى.

وغالباً ما تكون الترجمة دليل فضول. وإليكِ مثلاً على ذلك: ما يزال العرب حتى اليوم يترجمون مؤلفات الكتاب من أوروبا والولايات المتحدة وأميركا اللاتينية. وتجدين في المكتبات من الكتب المترجمة عن لغات أجنبية بمقدار الكتب الموضوعة باللغة العربية، إن لم نقل أكثر، ما يعني أنّ العرب متعطّشون إلى التعلّم. إذا ذهبت إلى مكتبة في أميركا مثلاً فسيتبيّن لك أنّ هناك القليل من الكتب المترجمة. وقد أظهرت دراسة أجريت أخيراً أنّه من أصل مئة كتاب تصدرها دور النشر الأوروبية هناك ثلاثة فقط مترجمة، وهذا يعني أنّ الأميركيين لا يهتمّون فعلاً بما تفكّر فيه أو تكتبه الشعوب الأخرى.

– هم أقوياء!

– بل أغنياء على الأخصّ، ويعتقدون أنّهم ليسوا بحاجة إلى ثقافة الآخرين.

– حدّثني بعد عن الزمن الذي كان العرب فيه أقوياء.

– لم تكن قوّتهم مادّية، فقد أدركوا أنّ الفتح الحقيقي لا يتمّ بواسطة الجيوش بل بالثقافة، حتى وإن كانوا قد خاضوا حروباً مع شعوب أخرى.

– أعطني تعريفاً لكلمة "ثقافة".

– قد أقول إنّها ما يميّزنا عن الحيوانات. فبمقدار ما يحتاج الإنسان إلى الطعام والشراب وإلى التمتّع بصحّة جيدة، يحتاج أيضاً إلى معرفة ما في عالمه المحيط الذي يعيش فيه. والثقافة وليدة الذكاء، وهي التي تطوّر فكرنا وتحسّن تفكيرنا وأن نبقى على تماسّ مع ما أورثنا إيّاه أسلافنا. فالثقافة تنتقل من جيل إلى جيل. ومجمل تعبيراتها وتطوّراتها تسمّى "حضارة".

– ما الذي خلّفه أسلافنا؟

– يعيدني هذا السؤال إلى الوراء لأتحدّث عن عصر الأنوار العربي. لقد ترك العرب، ليس لنا نحن العرب والمسلمين فقط، بل للبشرية جمعاء، الكثير من الأمور المهمّة، تركوا علم "الجبر" والكلمة تعني بالعربية "الاختزال"، و"الصفر"، نعم رقم الصفر، وقد تقولين إنّ هذا تافه، لكنّه أساس كلّ العلوم الرياضية نفسها. في اللغة العربية تعني كلمة "صفر" الفراغ ومنها جاءت كلمة "Chiffre" بالفرنسية. ومن دون الدخول في التفاصيل التاريخية اعلمي أنّ أكثر من شجّع العلماء والشعراء والبحّاثة هو الخليفة المأمون ابن هارون الرشيد. وقد توصّل إلى حكم إمبراطورية شاسعة كانت عاصمتها بغداد

التي وصل عدد سكّانها في ذلك العصر، أي في القرن التاسع، إلى أكثر من مليون نسمة من مختلف الأصول والديانات، علماً بأنه في تلك الحقبة كان عدد سكان روما، المدينة الأكثر اكتظاظاً، ثلاثمئة ألف نسمة فقط. وفي بغداد التقى العلماء الوافدون من الهند والصين وأوروبا والعالم العربيّ، حتى باتت بغداد عاصمة العالم الثقافية. ففي كلّ يوم ثلاثاء كان الخليفة يدعو العلماء ورجال الفكر الموجودين في بغداد إلى إمضاء نهار كامل في النقاش والتفكير وتبادل الأفكار والآراء. وقد تكاثرت بيوت الحكمة. والجدير بالذكر أنّ الورق المستورد من الصين قد ساعد النسّاخ على العمل أكثر فأكثر.

– ألم تكن الكتب مطبوعةً؟

– كلا، فالمطبعة اختُرعت في عصر متأخّر، في القرن الخامس عشر (وأول من قام بالتجارب الطباعية الأولى هو غوتنبرغ المولود في مايانس حوالى عام ١٤٠٠). لكن اعلمي أنّ أوّل مصنع للورق قد أنشئ في بغداد عام ٧٩٤. ثمّ أُسّست محترفات لصناعة الورق في مصر وفلسطين وسوريا. ومع الصينيين أدخل عرب صقلية والأندلس صناعة الورق إلى أوروبا.

– اليوم سأحدّثكِ عن الوجود العربي والإسلامي في الأندلس في جنوب إسبانيا. يخبرنا المؤرّخون أنّ العرب عندما وصلوا إلى الأندلس صُدموا بالتخلّف الثقافي في هذا البلد بالرغم من إرث الإمبراطورية الرومانية، حتى إنّ أحد المؤرّخين كتب: "كان الفراغ شاملاً، فالمهاجرون الذي وفدوا زرافات من الجزيرة العربية وسوريا وجدوا هناك شعوباً عاجزة عن إفادتهم بأيّ شيء. ليس هناك ما يمكن اقتباسه أو التمثّل به أو تقليده أو تطويره". وعلى قدمٍ وساق مع بغداد ستصبح قرطبة أهمّ مركز ثقافيّ في العالم الإسلامي. فقد حكم الخليفة عبد الرحمن الثالث المناطق المسلمة من إسبانيا مدّة نصف قرن وجعل من قرطبة مدينة رائعة، مدينة تشعّ بالثقافة. وأحاط نفسه بعلماء مسلمين ويهود ومسيحيين ووفّر لهم الإمكانيات المالية للمثابرة على أبحاثهم. وفي ذاك العصر تطوّر الشعر الأندلسي، وهو رمز رائع للتلاقي اليهودي الإسلامي، وأدب العشق والغرام، لدرجة أنّهما تركا أثراً عميقاً ومستداماً على الغرب، وقد أقرّ الشاعر الفرنسيّ لويس أراغون في قصيدته "مجنون إلسا"

بكلّ ما يدين به من فضل للشعر العربي في ذلك العصر.

– هل يمكن أن توضح لي ما هو هذا الفضل؟

– إنّه شعر الغرام الغنائي، فيه تغنٍّ بالحبّ والشكوى منه. ولويس أراغون، وهو أحد كبار شعراء القرن العشرين، استوحى كثيراً من تلك الأغاني عندما نظم مطوّلته الشعرية في حبّ زوجته إلسا. ثمّ إنّ هناك الشعر الصوفي الجميل جدّاً. والصوفي هو من يكون على علاقة وثيقة وذاتية مع الله تلغي كلّ رابط آخر، وهذه العلاقة مثل الإيمان ليس من السهل شرحها. والشعر الصوفي هو احتفال بحب الله الجارف. وتأتي كلمة "صوفيّ" من "الصوف" لأنّ هؤلاء كانوا يرتدون أثواباً من الصوف الخشن تميّزهم عن أولئك الذين يرتدون الثياب الفاخرة والمزركشة. ويرفض الصوفي كل مظاهر الحياة السطحية ليتكرّس كلّياً للصلاة والتأمّل ومحبة الله.

– هل كانوا شعراء؟

– نعم. كما أنّ منهم شعراء تركوا أثرهم في الحضارة الإسلامية، وأشهرهم يُدعى الحلّاج الذي قال: "أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا" وهو يقصد بذلك الله. حتى إنّه خرج يوماً في شوارع بغداد وهو يقول: "أنا الحقّ". ولم يسامح على ادّعائه

الاندماج بالله فاعتُبر مجنوناً، فسُجن وحوكم وحُكم عليه بالإعدام في عام ٩٢٢. وقد ترك قصائد في غاية الجمال.
ويجب أن تعرفي أنّ الله لا يثق بالشعراء. فقد ورد في الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أي الذين ضلّوا وأضاعوا الطريق، وتضيف الآية: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾.

– قلت لي في أحد الأيام إنّ أكثر ما تحبّه في القرآن هو شاعريته!

– كُتب القرآن بلغة جميلة جدّاً وأرى أنّه غنّي بالشاعرية. لكنّ المقصود بـ"الشعراء" كما وردت في الآية هم أولئك يرمون الكلام على عواهنه ولا يفعلون شيئاً، وليس هذا ما يجب أن يتّصف به الشعراء عموماً.

– إذاً كلّ ما تحقّق من خير أتى من العرب!

– فلنقل إن العرب أدركوا أمراً بديهياً وهو أنّه من أجل التقدّم والاغتناء يجب عدم إقفال أبواب البيوت بل بالعكس يجب تشريعها ومحو الحدود للوصول إلى الآخرين والاهتمام بما ألّفوا وما بنوا. لقد أرادوا التطوّر فوجدوا أنفسهم بحاجة إلى الاطلاع على ما أنجزه القدامى في سائر البلدان. قام ذكاء

العرب على التحلّي بالتواضع والإقرار بأنّ العالِم هو الذي يبدأ بالقول: "أنا لا أعرف شيئاً". وقد سعوا وراء العلم حيثما طوّره الآخرون، في اليونان مثلاً.

– لماذا اليونان؟

– لأنّ اليونان العظيمة في القرنين الرابع والثالث قبل المسيح، أي من ٢٤٠٠ سنة، كانت أرض العلماء الذين اهتمّوا بالرياضيّات وعلم الفلك والطبّ والفلسفة.

– هل انحصر كلّ هذا باليونان؟

– كلان بل كانت هناك بلاد فارس، أي إيران اليوم.

– ما هو علم الفلك؟

– هو دراسة حركة الكواكب وموقعها في الفلك.

– هل اهتمّ العرب بدراسة الفلك؟

– بالطبع، لأنّ تحديد الوجهات عند الإبحار في المحيط يتطلّب معرفة مواقع الكواكب في الفلك. أتعلمين أنّ أوّل مرصدين فلكيّين قد أنشئا عام ٨٢٧، الأوّل في دمشق والثاني في بغداد؟

– لكن ألم يدرس اليونانيون الكواكب؟

– بلى، ففي القرن الثاني كان هناك عالم فلك يُدعى

بطليموس، قرأ العرب ما وضعه وواصلوا أبحاثه. وأكثر من استوحى من بطليموس يُدعى ابن الهيثم (تُوفّي عام ١٠٤٠)، وكان عالم رياضيات وفيزياء وفلكيّاً. وقد وضع بحثاً في علم البصريات من ألف صفحة وهو مرجع أساسيّ استند إليه العالم الغربيّ في أعماله ما بين القرنين الثالث عشر والسادس عشر من أجل تحديد الوجهات في البرّ والبحر.

– علامَ يقوم علم البصريات؟

– على كلّ ما له علاقة بالعين، بالنظر وبالوسائل التقنية لمراقبة الأشياء الدقيقة التي لا يمكن تمييزها بالعين المجرّدة.

– كان العرب إذاً أقوياء في كل مجال!

– مرّة أخرى أشدّد على القول إنّ قوّتهم كمنت في تواضعهم، فتقبّلوا العلم ولم يدّعوا أنّهم علماء ولا أنّ حضارتهم أرقى من حضارات الآخرين.

– ما هو التواضع؟

– هو أن يكون المرء وديعاً وألا يحسَب أنّه يعرف كلّ شيء وأنّه ليس عند الآخر ما يتعلمه منه. فالتواضع كما يقال في المغرب هو أن يكون المرء "ذا رأس صغير" أي بعكس الرأس الكبير! والحكيم هو الذي يبدأ بالاعتراف بأنّه لا يعرف

الشيء الكثير وأنّ عليه أن يتعلّم كل شيء من الآخرين.

- ذكرت لي أنّ الطبيب يسمّى "الحكيم" في بعض الدول العربية.

بالفعل. فالطب العربي هو إنجاز كبار العلماء وبالنتيجة الحكماء. واعلمي أنّ أقدم المستشفيات المعروفة أنشأه هارون الرشيد حوالى عام ٨٠٠. وهناك اسمان كبيران فرضا نفسيهما في تاريخ الطب، الأول هو الرازي الإيراني الأصل، والثاني ابن سينا المولود في سهوب آسيا الوسطى. وقد وضع ابن سينا باللغة العربية كتاب القانون في الطب وهو كناية عن موسوعة من خمسة مجلّدات مشهورة في الغرب على أنّها "قمة العلوم العربية وتحفتها". وقد تُرجم إلى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر. وقد ظلّ سائداً في تعليم الطب في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر. وإليكِ تعريفه لمهنة الطبّ: "الطبّ علم يدرس الجسم البشريّ، سليماً كان أم مريضاً، بهدف الحفاظ على الصحة إذا كانت متوفّرة واستعادتها إذا فُقِدت".

في العصر نفسه أسهم طبيب يدعى الزهراوي في تقدّم علم الجراحة والأدوات المستعملة فيها، علماً بأن الجراحة

لم تمارس في أوروبا إلا في القرن الثالث عشر، وسبّب تأخّرها هو أنّ الديانة المسيحية لم تكن توافق على هذا العلم. وكما ترين يُتَّهم المسلمون اليوم بأنهم متخلّفون، لكنّ المسيحيّين مرّوا هم أيضاً بهذه الحالة.

– الحقيقة أنّ من الصعب اليوم أن يكون المرء مسلماً!

– لماذا تقولين ذلك؟

– لست أنا من يقول ذلك، بل سمعته على التلفزيون.

– هذا صحيح، فبسبب بعض المتعصّبين الذين يدّعون الانتماء إلى الإسلام يُساء فهم المسلمين في هذا الوقت وكذلك النظرة إليهم. لكن قبل أن أحدّثك عن هذه النقطة، دعيني أعطيك بعض الأمثلة عن أشخاص مسلمين كانوا سبّاقين في العالم.

– في أيّ مجال؟

– في الأدب مثلاً. هل سمعتِ بـ *Fables* [القصص المثل] التي ألّفها لافونتان؟

– نعم بالتأكيد.

– حسناً، ليكن بعلمك أنّه قبل لافونتان قام ابن المقفّع (من القرن الثامن) بترجمة واقتباس قصص وحكايات هندية تحت

عنوان **كليلة ودمنة**. وقد قرأ لافونتان هذا الكتاب الذي تُرجِم إلى الفرنسية عام ١٦٤٤ . وقد استوحى من هذه القصص ومن قصص "إيزوب" لكي يؤلّف قصصه على لسان الحيوانات.

– إذاً لافونتان ناقل!

– كلا، ليس ناقلاً لكنه رجل ذكيّ عرف كيف يقتبس ما يحتاج إليه وكتب لأبناء فرنسا. ولولا ابن المقفَّع لما كان هناك على الأرجح قصص لافونتان.

– أعطني مثلاً آخر!

– هل تعرفين قصّة روبنسون كروزو؟

– نعم قرأناها في المدرسة.

– في القرن الثاني عشر كتب رجل عاش في غرناطة ثمّ في طنجة ومراكش قصّة **حيّ بن يقظان**. وهي تحكي قصّة رجل عاش وحيداً على جزيرة مقفرة واكتشف بنفسه حقائق الحياة الكبرى التي تقود إلى ما سمّاه "نور الله". ثمّ يأتي نبيّ من جزيرة مجاورة ويؤكّد له أنّ الحقائق التي يكشفها الدين هي نفسها التي تمكّن من اكتشافها بنفسه. وقد سبق هذا الكتاب بخمسة قرون كتاب دانيال ديفوي المذكور.

– مثل آخر!

– ماركو بولو اشتُهر بأنّه دار حول العالم، لكن قبله بكثير هناك رحّالة عربي يُدعى ابن بطوطة، من مواليد طنجة عام ١٣٠٤، دار مرّتين حول العالم، وقد ترك وراءه كتاب مذكّرات يومية يروي فيه كلّ ما شاهده وسمعه.

– وماذا أيضاً؟

– لطالما اعتُبر الإيطالي فلافيو غيوجا من بلدة أمالفي مخترع البوصلة. والحقيقة أنّ البحّارة العرب هم الذين ساعدوه على اكتشاف هذه الأداة التي تساعد في تحديد الوجهة في البحر والبرّ. فمنذ القرن الثاني عشر كانت السفن التجارية العربية سيّدة البحار. ولم يكتشف فلافيو غيوجا في أحد الكتب هذه الآلة التي اخترعها العرب إلا في عام ١٣٠٢.

– حسناً! اخترع العرب الكثير من الأمور المهمّة، لكن اليوم ألا يخترعون شيئاً؟

– من أجل فهم الوضع الحالي للدول العربية والإسلامية يجب أن أطلعك قليلاً على المزيد من التاريخ. إذا استوعبت ما قلته لك تعرفين أنّ الإسلام هو الذي دفع العرب إلى أن يجوبوا العالم بغية نشر رسالة النبيّ وضمّ أكبر عدد ممكن من الناس إلى هذه الديانة الجديدة. وإذ خرجوا من ديارهم

اكتشفوا عالماً آخر غير عالمهم وأرادوا أن يتعلّموا ويسهموا في تطوّر البشرية. وهو ما جرى. لقد وقعت معارك وسقط قتلى ونشبت نزاعات داخل الإسلام. وعندما كان المسلمون يحتلّون بلداً كانوا يضمنون الحماية للمسيحيين واليهود، ما يوجب على هؤلاء أن يدفعوا لهم الجزية.

– هل كانوا يشترون سلامتهم؟

– كأقليّات، نعم.

– هل تقول أقلّيات؟

– في دار الإسلام لم يكن اليهود والنصارى الذين يسمّيهم المسلمون "أهل الكتاب"، أي الذين تستند ديانتهم إلى كتاب مقدّس مثل القرآن عند المسلمين، لم يكونوا كثيري العدد، وفي هذه الحالة يُعدّون أقلّية. وبفعل وضعهم هذا كان عليهم أن يدفعوا مبلغاً لبيت المال (الخزينة) مقابل ضمان أمنهم الجسديّ والمعنويّ.

– ولماذا كان يجب الدفع من أجل العيش بين المسلمين؟

– ربّما أراد المسلمون دفعهم إلى اعتناق الإسلام... لكن هذا الوضع لم يكن ثابتاً على الدوام. وبالرغم من ذلك فإنّ العقل والمعرفة والثقافة هي التي ميّزت أعمال المسلمين ما بين

القرنين التاسع والحادي عشر. فبعد ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) الذي ظلّ يُدَرّس في أوروبا حتى القرن السابع عشر، وبعد الفارابي الذي وضع جدولاً عاماً بالعلوم، جاء ابن رشد وهو مهمّ جدّاً.

- أكثر من الآخرين؟

- نعم، لأنّه بزَّ سابقيه بأشواط. وقد عاش بعد قرنٍ من ابن سينا، وُلِد عام ١١٢٦ في قرطبة وتُوفّي عام ١١٩٨ منفيّاً في المغرب.

- ولماذا نُفي إلى المغرب؟

- لأنّه كان فيلسوفاً بالتحديد. فهو الذي جمع ما خلفه الفيلسوف الإغريقي أرسطو ونقله إلى الغرب. كما كان فقيهاً إسلامياً كبيراً.

- ما المقصود بفقيه؟

- هو الذي يدرس الفقه، أي القواعد والشرائع التي يقوم عليها المجتمع. وهي ما يحدّد معايير العدالة.

- حسناً يعني ذلك أنه كان صاحب حكمة وعدل.

- حاول أن يدخل العقل في صلب الإيمان.

- العقل يعني المنطق والإيمان هو المعتقَد أليس كذلك؟

– نعم، وهو حاول أن يعطي فعل الاعتقاد بعض المنطق. ثمّ لاحظ أنّ الديانة الإسلامية يستغلّها بعض أصحاب المصالح المختلفة. فكان هناك مذاهب وجماعات رفضت مناقشة الأمر وعلى الأخصّ لم تتقبّل إسهامات الأجانب. ووقعت جدالات ولم تعد دار الإسلام هي "بيت الحكمة". وقد ندّد ابن رشد بكل ذلك لكن لم يكن رجال السياسة في قرطبة يؤيّدون رأيه، فهرب طلباً للحماية في المغرب. ومنذ تلك الحقبة دبّ التعصّب بمختلف أشكاله في جسد الحضارة الإسلامية. لكن ليست هذه المؤشّرات الوحيدة لتبيان الانحطاط، بل هناك أيضاً مرحلة الحملات الصليبيّة بأكملها.

اليوم السابع

– ماذا تعني بالانحطاط؟

– هي عندما تتقهقر الأمور وتنكفئ وبدلاً من أن تسير في اتّجاه التطوّر تسلك طريق التداعي والسقوط. فالمنزل عندما نُهمل صيانته ويصبح مهجوراً أو لا يلقى عناية ساكنيه يتداعى ويصبح خراباً ويتعطّل كل شيء في داخله. والحضارة هي بمثابة منزل كبير، فإن قامت على أسس متينة وبُنيت جدرانها

بحجارة جيّدة، وإن أمدّها الناس الذين يتردّدون عليها بأموال جديدة وفتحوها للهواء وجمّلوها، عندها تصمد. الأمر أكثر تعقيداً في النهاية لكن يمكن القول إن الحضارة هي مجموعة من المكتسبات المؤلّفة من تراث ومن تثمير ما خلّفه لنا الأسلاف. ويجب معرفة كيفية الاهتمام بالحضارة مثل الاهتمام بمنزل قديم وجميل.

- ألم تحظَ الحضارة العربية بالعناية اللازمة؟

- بعد عصر زهوّها وأنوارها تلقّت ضربات متتالية، أولاً بسبب الانقسامات التي شقّت البيت الكبير. وقد نشبت المنافسات بين الخلفاء، هؤلاء القادة الذي تحكّم بهم الجشع أكثر فأكثر ما عادوا يعبأون بالمصلحة العامّة بل بمصالحهم الأنانية المباشرة. فالخلفاء في بغداد وقرطبة كانوا من السنّة، أي يتبعون سنّة النبيّ التقليدية، بينما الخليفة الفاطمي في القاهرة شيعيّ أي من أتباع عليّ بن أبي طالب.

- وكيف تجلّت هذه الانقسامات؟

- بدءاً من عام ١٠٥٥ صار الخلفاء يستعينون بمرتزقة من السلاجقة (وهم من أراضي تركيا الحالية) للدفاع عن أراضيهم. وعلى سبيل المثال تمكّن هذا الجيش السلجوقي

من منع المسيحيين من دخول الأماكن المقدّسة في القدس وهزمهم. وبذلك أمسك السلاجقة بالسلطة السياسيّة.

– ماذا جرى عندها؟

– استغلّ البابا أوربانوس الثاني هذه الانقسامات العربية وصعود هؤلاء المرتزقة لكي يطلق الحملات الصليبية ضدّ المسلمين من عام ١٠٩٦ إلى عام ١٠٩٩، وقد جاءت في البداية استجابة لطلب النجدة من الإمبراطور البيزنطي بعد أن بات المسلمون السلاجقة يهدّدون عاصمته القسطنطينية. وفي ما بعد راحت الجيوش المسيحية تقوم بفتوحاتها.

– من أين أتت كلمة "الصليبية"؟

– من كلمة "الصليب" الذي هو رمز المسيحيين لكون المسيح قد مات مصلوباً. والحملة الصليبية تعني شنّ الحرب باسم المسيحية ضدّ الذين يعارضون هذه الديانة أو الذين يعوقون توسّعها. في تلك الحقبة كان الإسلام على توسّع مستمرّ ونجمه يسطع على كلّ الصعد. وبلغ عدد حملات الجيوش المسيحية ثمانياً. وقامت الحملة الأخيرة في عام ١٢٢٣ وفيها احتلّ الأمراء الكاثوليك قرطبة في عام ١٢٣٦ ثم إشبيلية في عام ١٢٤٨، وقد شكّلت هزيمة سياسية وعسكرية

للحضارة العربية الإسلامية. وحدها غرناطة صمدت وكانت آخر معقل للحضارة العربية في أوروبا إلى أن سقطت بأيدي الملوك الكاثوليك في عام ١٤٩٢ لتكون نهاية عصر وأفول حضارة كبيرة. ثمّ تغيّر العالم، فعام ١٤٩٢ هو أيضاً عام اكتشاف كريستوف كولومبوس القارّة الأميركية.

– وما كان مصير عرب الأندلس؟

– كان هناك يهود ومسلمون تعرّضوا للملاحقة وطردوا من إسبانيا. أمّا الذين اختاروا البقاء فقد وضعوا أمام خيارين، إمّا العماد أو الموت.

– ماذا يعني ذلك؟

– اعتناق المسيحية أو الموت، واختار كثيرون التحوّل إلى الديانة الكاثوليكية. لكن بالرغم من هذا التحوّل ظلّوا يتعرّضون للاضطهاد لأنّهم في أعماق قلوبهم لم يتخلّوا عن إيمانهم. وقد أطلق عليهم اسم "الموريون" فاضطهدوا ورُحّلوا إلى خارج إسبانيا. وهذا ما عُرف بمحاكم التفتيش التي توقّفت أعمالها في ٢٢ أيلول/سبتمبر من عام ١٦٠٩. ولعلمِك فإنّ إسبانيا الكاثوليكية قد تشرّبت من دون أن تعترف أبداً بذلك كلّ ما قدّمه العرب لهذه المنطقة. مثلاً

من المسلمين الذين اضطرّوا إلى الفرار من غرناطة بعد الفتح الكاثوليكي المضادّ لهذا البلد هناك عالم جغرافيا يدعى "ليون الأفريقيّ" واسمه الأصليّ هو حسن الوزّان، وقد أمضى عدّة سنوات في روما لدى البابا "ليو العاشر" (تُوفي عام ١٥١٨). وهناك علّم اللغة العربية والإيطالية وأدخل إلى بلاط هذا البابا نصوصاً إغريقية منقولة إلى العربية ثمّ عاد فترجمها إلى اللاتينية. ويمكن اعتباره رمز الوئام بين الشرق والغرب.

– وما كان مصير المسلمين والعرب؟

– دخل العالم العربي في عزلة، وقد حُظرت عليه إقامة علاقات تجارية مع أوروبا، واستمرّ تعليم الفلسفة العربية في الجامعات الأوروبية لكنّها توقّفت عن التطوّر في العالم العربي والإسلامي، لا بل لم تعد تُدرس.

– ماذا كان يُدرّس مكانها؟

– بدلاً من الفلسفة التي تعلمنا منهجية التفكير والشكّ والنظر في الأمور والتي تفتح لنا آفاقاً متنوّعة ومتعدّدة على فكر الشعوب الأخرى، صارت تُدرس الديانة الإسلامية ليس إلا. والحال أنّ الديانة تعني المُعتقد وبالتالي انتفاء التفكير والشكّ.

وبذلك تحوّل الوضع من سياسة الانفتاح على العالم إلى الانعزال والانغلاق على الذات، وهذا فقر بحدّ ذاته، وسيكون قاسياً جدّاً على العالم العربي والإسلامي، وهو يستغرق زمناً طويلاً لكن ها هي النتيجة تظهر اليوم. ففي حالة الانكسار يتمّ تلقّي تداعيات الهزيمة لزمن طويل، طويل جدّاً.

– ماذا جرى من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا؟

– وقعت أحداث كثيرة. لكن فلنحاول أن نفهم لماذا عاش العالم العربي حقبة طويلة من التداعي.

– وما هو التداعي؟

– هو التراجع في المستوى والنوعية. عندما يمرض أحدهم يقال إنّ صحّته تتداعى، أو إن لم يعد يرى جيداً يقال إنّ نظره يتداعى، أو لا يسمع جيّداً نقول إنّ سمعه يتداعى. هذا شبيه بالانحطاط، وهو مؤشّر على السقوط البطيء.

– وما قصّة هذا التداعي؟

– إنّ تحصيل المعارف والترجمات والتلاقي بين العلماء وحرّية التفكير الفلسفي كلها نشاطات لطالما أرادها الأمراء وموّلوها وحموها. وقد جاء هذا الانفتاح تلبية لحاجة فهم العالم بهدف حكم إمبراطورية شاسعة ليس فيها إلّا شعوب

عربية بطريقة جيدة. ومذ ذرّت الخلافات برأسها بين الأمراء لم يعد العلماء والفلاسفة يلقون الدعم، لا سياسياً ولا مالياً، من أجل مواصلة أعمالهم.

– اذكر لي اسم عالم عربيّ ترك بصماته في تلك الحقبة.

– إن كان لا بدّ من حفظ اسم واحد، فهو ابن خلدون، آخر العلماء العرب الكبار الذي وضع مؤلّفاً ذا بعد عالميّ. فهو الذي وضع أُسس ما يسمّى اليوم "علم الاجتماع" الذي يدرس الوقائع والمسلكيات في المجتمع. عاش ما بين أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر في شمال أفريقيا (١٣٣٢–١٤٠٦)، ودرس ذهنيات العرب وتصرّفاتهم. لقد راقبهم جيّداً وانتقدهم كثيراً فاتحاً بذلك الطريق أمام النقد والتغيير. وقد حذّر الخلفاء من عديمي الكفاءة الذين يتولّون التعليم الديني مستغلّين ذلك لتضليل الشعب. كما اعترض على بعض الذين يستعملون المساجد لكي يعلّموا ما ليس له علاقة بالقرآن. وهو منذ ذلك العصر استشرف الخطر الكامن في توظيف الإسلام لدوافع لا تمتّ إلى الدين بصلة، وكان بذلك صاحب رؤية. كما برهن على ما يمكن أن يولّده المناخ من تأثير على مزاج الشعوب وذهنياتها. واستغرق الأمر حتى

نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لكي يقترح بعض أصحاب الفكر المتنوّر والمنفتح مثل ابن خلدون إجراء إصلاحات في الإسلام.

– ماذا تعني كلمة "الإصلاحات"؟

– هي تقضي بتغيير بعض القواعد والأعراف في طريقة ممارسة الدين.

– وهل يمكن تغيير شيء ما في الديانة الإسلامية؟

– ليس المطلوب المسّ بالقيم والمبادئ التي تقوم عليها، لكن يمكن إدخال بعض الإصلاحات عليها مع التمسّك بجوهرها، وهذا يتطلّب جرأة وعزماً. ومن الأسماء التي يمكن ذكرها في هذا المجال جمال الدين الأفغاني (تُوفّي عام ١٨٩٧) والمصري محمّد عبده (تُوفّي عام ١٩٠٥) اللذان دعَوَا إلى الحوار وعدم التعصّب وعلى الأخصّ إلى التكيّف مع العالم الحديث. وقالا بأنّه لا ينبغي الأخذ الأعمى بكلّ ما فرضه قدامى المعلّمين من قواعد سلوك في الإسلام، وبأنّ العصر الذي نشأ فيه الإسلام مختلف جدّاً عن الأزمنة الحديثة. وبغية تغيير بعض الأمور في الدول الإسلامية استندوا إلى آية من القرآن تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد، ١١)، وهذا يعني أنّه إن كانت هناك في العالم اليوم نظرة سيّئة إلى المسلمين فليس ذلك دوماً خطأ الآخرين غير المسلمين. ولذلك يجب أن يقرّروا تغيير ما هو سيّئ أو معتلّ في مجتمعهم، وحتى وإن يكن غير المسلمين أساؤوا إلى الشعوب الإسلامية يجب ألا نلقي على عاتقهم كلّ ما لا يسير جيّداً في هذه البلاد. فلكلٍّ نصيبه من المسؤولية. فالحملات الصليبية هي من زمنٍ غابر وكذلك الاستعمار. وإن كان بين المسلمين شبّان تحوّلوا إلى العنف والتعصّب فذاك لأنّهم تلقوا تربية سيّئة بعد أن تُركوا بين أيدي جهلةٍ عديمي الذمّة، فلم يحسنوا، أو لم يريدوا أن يجعلوهم يحبّون التطوّر والثقافة والحياة، فازداد في المقابل الفقر والأمّية. كان هناك خوف من الحرّية ولم يُبذَل أيّ جهد لمعالجة المفاسد والمظالم بأيّ شكل. وعندها انكفأوا إلى الدين الذي فهموه بطريقة سيّئة، ولذلك هم من الضالّين كما يقول القرآن، هم الغاوون. فليس الآخرون مصدر الشرّ دوماً.

– ماذا تعني "الذمّة"؟

– هل تعرفين ماذا تسمّى تلك الحصاة الدقيقة التي تدخل في حذائك وتضايقك وأنتِ تمشين؟

– كلا. أهي الحصاة المزعجة؟

– هي تسمّى "الذمّة" لأنّها حبّة الرمل التي تمنع الرجل من النوم جيّداً. وهي تشتغل بفعل هذا الشيء الذي يمكن أن يكون قانوناً أو قاعدة أو مبدأ. أمّا الناس الذين لا ذمّة لهم فهم يغفون بلا مشاكل، إذ لا يزعجهم عدم احترامهم للمبادئ.

اليوم الثامن

– ما هي أهمّ الأحداث التي وقعت في العالم العربي في بدايات انحطاطه؟

– انتقل الحكم من الإمبراطورية العربية الإسلامية إلى الإمبراطورية العثمانية، أي التركية. وقد وطّد الأتراك حكمهم في مصر ولبنان وسوريا وإيران وفي دول البلقان وتونس والجزائر. أمّا المغرب فقد قاومهم وأفلت من قبضتهم. وبلغت القوة العسكرية العثمانية ذروتها في القرن السادس عشر. والإسلام هو دين ودولة، وفي القرن التاسع عشر بدأت الامبراطورية العظمى تتداعى. وبعد الحرب العالمية الأولى اختارت تركيا أن تتحوّل دولة حديثة ففصلت بين الدين والسياسة. وفي عام ١٩٢٢ ألغيت الخلافة أي القيادة الروحية

والسياسية لكل المسلمين. وبفضل مصطفى كمال أتاتورك أصبحت تركيا دولة علمانية.

– ما هي العلمانية؟

– أن يكون المرء علمانياً هو ألا يكون دينياً.

– هل يعني هذا عدم الإيمان بالله؟

– يمكن أن نؤمن بالله ونكون علمانيين. فالعلمانية تقضي بعدم استغلال الدين لفرض قوانين تتعلّق بحياة الناس. ففي فرنسا اعتُمدت العلمانية رسميّاً ابتداءً من التاسع من كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٠٥ يوم أُعلِن فصل الدين عن الدولة. ومن الأمثلة على ذلك أنّ المدارس الرسمية في فرنسا هي مدارس لا يحقّ لرجال الدين أن يعلّموا فيها. لكن في المقابل لهم الحقّ في مدارس خاصّة بهم. فهناك الكنائس والكنيس والمساجد. ولكل فرد الحقّ في الذهاب للصلاة حيث يشاء، فالدولة لا تتدخّل في ممارسة الدين. وتركيا هي الدولة الإسلامية الأولى التي تحوّلت دولة علمانية.

– وهل هذا مهمّ؟

– نظراً لما يحدث في هذه الأوقات يبدو من المهمّ جداً فصل الدين عن السياسة. وما لم يقم عازل بين الاثنين

فستستمرّ المشاكل. وفي فرنسا يجب على المسلمين أن يمارسوا ديانتهم مراعين في الوقت نفسه قوانين الجمهورية.

- كيف؟

- هل تذكرين أولئك الفتيات المغربيات اللواتي كنّ يحضرن إلى المدرسة بحجاب على رؤوسهنّ؟

- كلا، لكن احكِ لي ما جرى.

- جرت مداولات كثيرة، وفي النهاية تخلّت بعض الفتيات عن ارتداء الحجاب فيما سحب بعض الأهالي بناتهنّ من المدرسة. وقد أخطأوا في ذلك لأنّهم حرموهنّ التعلّم.

- شاهدت قبل أيّام على التلفزيون نساءً أفغانيّات مغطّيات من الرأس حتى القدمين، يخال المرء أنهنّ أشباح...

- ما شاهدته هنّ نساء أفغانيات يسيء الرجال معاملتهن باسم الإسلام.

- وهل يجبر الإسلام المرأة على التحجّب كلّياً؟

- كلا. تقصدين الكلام على الحجاب في العالم العربي والتشادور في إيران. ما ورد في القرآن بمنتهى البساطة، فعلى المرأة التي تصلّي، أي التي تتوجّه إلى الله، أن تغطّي رأسها وترتدي ثياباً محتشمة لا تكشف مفاتن جسدها.

وهذا ما نجده أيضاً عند المسيحيّين واليهود حيث لا يُسمح للمرأة بدخول كنيسة أو كنيس. ويحقّ للمسلمات أن يدخلن المساجد، لكن يجب ألّا يختلطن بالرجال، وذلك تفادياً للمشاكل والحوادث. فمكان الصلاة ليس مكاناً للتلاقي بين الجنسين.

– تحدّث الله إذاً عن الحجاب.

– نعم، ففي الآية الحادية والثلاثين من سورة النور يوصي المؤمنات بأن ﴿يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارِهنّ ويَحفظْنَ فروجهنّ﴾. وفي الآية التاسعة والخمسين من سورة الأحزاب يتوجّه إلى النبيّ بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾. وهذا يعني أنّ نساء المؤمنين يجب أن يتميَّزن عن نساء غير المتعفِّفين.

– ولماذا يتكلّم الله على الزوجات؟ هل كان للنبيّ عدّة زوجات؟

– في الإسلام يحقّ للرجل بأربع زوجات، وهذا ما يُسمّى تعدّد الزوجات.

– لكن ليس هذا عدلاً!

– أصبتِ، ليس هذا عدلاً. لكن كما تعرفين، إذا تمعنّا في النصّ القرآني نتبيَّن أنّه يستحيل على المؤمن والمسلم الصالح أن يكون متعدّد الزوجات إذ ورد فيه "شرط أن يعدل في حبّهن" أي أن يكون عادلاً ومنصفاً مع كلٍّ منهنّ، وهذا مستحيل إذ لا يمكن أن يكون الحبّ واحداً لأربع نساء في الوقت نفسه. حكماً سيكون هناك تفضيل لواحدة على أخرى وبالتالي إجحافٌ. وتعدّد الزوجات هو اليوم على طريق الزوال لأنّ المرأة بدأت تحصل على حقوقها لكن للأسف ليس في كلّ الدول الإسلامية بل في بعضها كما في تونس حيث مُنِع تعدّد الزوجات. فلم يعد من المقبول اليوم الحجاب على الطريقة الأفغانية ولا تعدّد الزوجات.

– لقد انتفضت النساء على ما آمل!

– نعم، لكن ليس دوماً وليس جميعهنّ في الوقت نفسه. ومن حسن الحظّ أن هناك جمعيات نسائية في بعض الدول الإسلامية، مثل مصر والمغرب والجزائر، تناضل من أجل فرض تغيير قانون الأسرة ولكي تحظى المرأة بنفس حقوق الرجل. وليس هذا بالأمر السهل لأنّه بعد تعديل القوانين يتطلّب الأمر وقتاً لكي تتقبّل الذهنيات انقلاب الأعراف والعادات. يُفترض

بالمسلم الصالح أن يكون عادلاً وبالتالي يجب أن يوافق على أن تتمتّع المرأة في حياتها اليومية بالحقوق نفسها التي يتمتّع بها. واعلمي أنه ذُكر في الإسلام حرفياً أن لا خجل ولا حياء في الكلام على الجنس فيقال: "لا حياء في الدين".

– ماذا يعني ذلك؟

– يعني أن الإسلام يتحدّث بلا مواربة عن العلاقات بين الرجل والمرأة. في مراهقتي قرأت كتيّباً بعنوان **الروض العاطر** ألّفه في القرن الخامس عشر رجل دين من تونس يدعى الشيخ النفزاوي. وهو كناية عن دليل في التربية الجنسية للشباب المسلم. وبالطبع هو موجَّه إلى الصبيان لا إلى البنات. وانطلاقاً من توصيات الإسلام يعرض الشيخ آراءه ويشرح كيفية ممارسة الجنس.

– لنعد إلى التاريخ!

– إذاً بعد زوال الإمبراطورية التركية جاء دور الأوروبيين ليدخلوا ويقيموا بعديدهم وعدّتهم في هذه البلاد من دون أن يكون مرحّباً بهم، نزل الفرنسيون عام ١٨٣٠ في الجزائر، والإنكليز في مصر عام ١٨٨٢، وبعد تونس جعل الفرنسيون من المغرب محميّة لهم وذلك في عام ١٩١٢.

– ولماذا جاؤوا إلى هذه البلاد؟

– هذا ما يُسمّى الاستعمار، و"الاستعمار" يعني زرع مستوطنات على أراضٍ خارجية أي احتلال أراضٍ بالقوة وفرض شرائع وقوانين في البلاد لإخضاع السكان المحلّيين. وهذه هي الهيمنة.

– هذا ظلم!

– نعم، هذا مؤذٍ وظالم. لكنّ ما سهّل احتلال هذه البلدان العربية والإسلامية هو التقهقر الذي شهدته. ويمكن تشبيه ذلك بالجسد المريض الذي فقد مناعته فإذا هو يصاب بأمراضٍ أخرى.

– وهل ثار الناس على ذلك؟

– نعم فقد انتفضوا بعد عدّة عقود. وأفظع تلك الحروب من أجل الاستقلال كانت حرب الجزائر ما بين عامي ١٩٥٤ و١٩٦٢، وقد ذهب ضحيتها مئات الآلاف من القتلى من الطرفين، ثمّ اضطرّ الفرنسيون الذين وُلدوا وعاشوا في الجزائر إلى مغادرة البلاد.

– وهل كان للإسلام دور في هذه الحروب؟

– نعم، فالإسلام كدين وثقافة وحّد كلّ المقاتلين وولّد

بينهم روح التضامن من دون أن يتحوّل القتال إلى حرب دينية. ثمّ شهدت هذه البلدان خضّات سياسية بعد استقلالها.

اليوم التاسع

– كيف تولّد هذا العنف عند المسلمين؟

– ليس كلّ المسلمين ميّالين إلى العنف، فلا يجب التعميم. واعلمي أنّ ما من ديانة مسالمة كلّياً أو منذورة كلّياً للحرب. ففي القرآن تجدين الكثير من الآيات التي تدعو إلى المحبّة والعدل والوئام والسلام بين البشر وإلى العفو والتحلّي بالحكمة، كما تجدين آيات تحضّ المسلمين على القتال عندما تقتضي الظروف. فالعنف موجود في كلّ مكان. ثمّ إنّ المسلمين ما عادوا يشكّلون إمبراطورية كما في فجر الإسلام. فالمجتمع الإسلامي بات موزّعاً في كلّ القارات. ولا أظنّ أنّ مفهوم ممارسة الدين عند الصينيّ هو نفسه عند المغربيّ أو الأفريقي أو الأوروبي الذي تحوّل حديثاً إلى الإسلام. والحقيقة أنّه بعد وفاة النبيّ وقعت حوادث عنف وحروب، ومردّ ذلك إلى أنّ الإسلام ليس ديانة معزولة عن الحياة اليومية. فهو يهتمّ بسلوك البشر في المدينة وبأخلاقهم

وبتنظيم مجتمعاتهم وإدارتها. وهذا من باب السياسة. وهذا ما جعل الإمام الخميني الذي أطاح حكم شاه إيران وأسّس الجمهورية الإسلامية في عام ١٩٧٨ يقول: "إمّا أن يكون الإسلام سياسة وإمّا لا معنى له". فالإسلام يدير حياة الناس بطريقة مباشرة أكثر ممّا تفعله الديانتان المسيحية واليهودية. ومن هذا المنطلق شُرِّعت الأبواب أمام النضال والعنف. فالسياسة تعني الكفاح من أجل الوصل إلى الحكم. وإذا ما خيضت المعركة باسم الاسلام، كما في حالة إيران، عندها يُعزى العنف المعتمَد فيها حكماً إلى الإسلام.

– نعم هذا ما أريد أن أعرفه، وأريد أن أفهمه، لأنّ الكلام يدور اليوم حول الاسلام بسبب الاعتداءات.

– الحقّ معك، ولذلك يجب التحلّي بالصبر ومواصلة سماع تاريخ الإسلام، وهنا سأحدّثك عن فرقة تدعى "الحشّاشين" (والفرقة هي جماعة تتبع بشكل أعمى معلّماً يسمّى "المرشد"). و"الحشيش" باللغة العربية هو كناية عن عشبة مخدّرة عموماً. والحشاشون هم من يتعاطون المخدّرات ويدخّنون هذه العشبة. وقد ظهرت هذه الفرقة في غرب آسيا أي في سوريا وبلاد فارس، في القرنين الحادي

عشر والثاني عشر. وقد لُقّب زعيمها حسن الصبّاح، المسلم المتزمّت والقاسي والاستبداديّ بـ"شيخ الجبل" (تُوفّي عام ١١٦٦). وعندما أصبح مرشداً اقام في قلعة "ألَموت" الواقعة على مقربة من بحر قزوين، ومن هناك أطلق قوّاته في حملات تأديبية ضدّ الحكام بعد أن يخدّرهم بحشيش القنّب الهندي. وقد أرعب الملوك والأمراء، بأسلحته التي هي الإرهاب والكراهية والمجازر. ومن كلمة "حشّاشين" أخذت كلمة "assassins" الفرنسية التي تعني القَتَلة.

– وهل كان "شيخ الجبل" مسلماً فاسداً أيضاً؟

– كان شيعيّاً قد أحاط نفسه بإطار من السرّية. واليوم يُشبَّه من يرتكبون العمليّات الانتحارية بأتباع "شيخ الجبل". لكن مرّة أخرى أقول لك إن هذا ليس من الإسلام بشيء.

– أعرف، فالإسلام يعني "احترام السلام" وليس ارتكاب الجرائم. إلا أن الذين نفّذوا الاعتداءات هم مسلمون.

– نعم، لكن المسلمين ليسوا هم الإسلام.

– كيف ذلك؟

– ذلك أن مفهوم الديانة ليس هو نفسه عند كل معتنقيها.

– حسناً، ماذا جرى بعدها؟

– انتشر الإسلام على نطاق واسع في أفريقيا وآسيا (هل تعلمين أن أكبر بلدٍ إسلامي هو في آسيا، وهو أندونيسيا؟). لا بدّ أنّك أدركت الآن أنهم كانوا عدّة مئات في القرن السابع وقد تخطّوا المليار نسمة في هذه الأيام.

– مليار مسلم في العالم! لماذا يتحوّل هذا العدد الكبير من الناس إلى الإسلام؟

– إنّ العرب هم أقلّية بالمقارنة مع الآسيويين الذي اعتنقوا الإسلام. وليس كلّ العرب مسلمين، فنجد عرباً مسيحيين في مصر (وهم الأقباط ويشكّلون نسبة ١٥ في المئة من السكّان) وفي لبنان هم الموارنة، وهم يقيمون القدّاس الإلهيّ باللغة العربية. إنّه لأمر جميل.

– وماذا عن فرنسا؟

– الإسلام في فرنسا هو الديانة الثانية. ويقدَّر عدد المسلمين فيها بأربعة ملايين هم بمعظمهم من أصول مغربية، إضافة إلى الأتراك والأفارقة والباكستانيين والمصريين وغيرهم. لكن بما أنّه ليس في الإسلام إكليروس فهم لا يتوصّلون إلى الاتفاق على تعيين ممثّل واحد لكل هذه الجماعات.

– هل ترى أنّ المسلمين والمسيحيين سيتوافقون على

العيش بسلام هنا في فرنسا وفي سائر أوروبا؟

– ليس هناك حرب بين هاتين الديانتين. وفرنسا توفّر لمسلميها فرصة العيش في بلدٍ ديمقراطي يضمن لهم ممارسة حرّيتهم. لكن لا ننسيَنَّ أنّ فرنسا بلدٌ علماني أي إنّه ليس من دين محدّد للدولة. ومن حقّ كلّ الديانات أن تكون موجودة لكن ليس لأيّ منها أن تهيمن على الديانات الأخرى. وختاماً أستشهد بآية من القرآن تثني على ما يُسمّى "الاختلاط": ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣).

– لقد سمعنا بعض الكلمات ونودّ أن نعرف معناها، هل يمكن أن تفسّرها لنا؟

– أيّة كلمات؟

– "تماميّ" مثلاً.

– "التماميّ" في أوروبا قديماً هو "عضو في حزب يقول بربط الدولة بالكنيسة". ولا يمنع أنّ في هذه الكلمة دلالة حسنة من ناحية ما. فالتماميّ صاحب ولاء، مخلص لمبادئه وقيمه، وضدّ هذه الكلمة هو "المنحرف" الذي يرتشي ويضحّي بقيمه ومبادئه من أجل المال أو المصلحة.

– وما علاقة التماميّ بالإسلام؟

– لا يستعمل المسلمون المتطرّفون هذه الكلمة في الإشارة إلى الأعمال التي يقومون بها. وفي المقابل تُستعمل هذه الكلمة للدلالة على الكاثوليك المطالبين بالمزيد من التشدّد في ممارسة ديانتهم، فيدعون مثلاً إلى إحياء القدّاس الإلهي باللغة اللاتينية وليس بأيّ لغة أخرى. وعندما بدأ المسلمون يطالبون بإسلام أكثر تشدّداً وأكثر التزاماً بما كان عليه في نشأته وصفتهم الصحافة بـ"التماميّين".

– وهم، ماذا يعتبرون أنفسهم؟

– يقولون إنّهم "إسلاميّون"، وفي ما بينهم يعتبرون أنفسهم جميعاً "إخواناً"، وقد درجوا على ذلك منذ قيام الحركة الأولى التي أسّسها في عام ١٩٢٨ معلّم يدعى حسن البنّا في مدينة الإسماعيلية الصغيرة في مصر والتي أطلق عليها اسم "الإخوان المسلمون". وقد أرادوا مكافحة انحطاط الأخلاق ومقاومة تأثيرات الأوروبيّين على المسلمين. وهم عارضوا حزب "الوفد" الوطني المصري الذي كان يناضل من أجل قيام نظام سياسيّ وبرلماني. وقد اعتقل أحد قياديّيهم المدعو سيّد قطب وتعرّض للتعذيب بتهمة "التآمر على عبد

الناصر" وحُكم عليه بالموت ونُفّذ فيه حكم الإعدام في ٢٩ آب عام ١٩٦٦. ومعلّمه حسن البنا هو القائل: "كل بقعة من الأرض رفرفت فوقها راية الإسلام هي موطن لكلّ مسلم وعليه الحفاظ عليها عبر العمل من أجلها وبالجهاد المقدّس". وما تزال الحركة تواصل نشاطها في مصر وفي سائر الدول الإسلامية. وهي حسنة التنظيم تعمل على مساعدة الفقراء والمرضى وتستند إلى الكتب الكثيرة التي وضعها سيّد قطب الذي كان مثقّفاً جداً.

عندما نسمع خطب الإسلاميين ندرك أنّهم يريدون أن يفرضوا بالقوة نمطاً معيّناً في الحياة والسلوك واللباس ويرفض ما هو قائم في عصرنا الحالي، متناسين أمراً بسيطاً هو أنّ الإسلام نشأ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وفي تراثه المكتوب قيمٌ صالحة لكلّ زمان وإلى الأبد، إلّا أنّ فيه أموراً تختصّ بعصر نشأته ولا تتكيّف مع العصر الحديث. وهم يريدون العودة إلى زمن النبيّ ويفهمون رسالة النبي محمّد بطريقة مبسّطة وشكلية وكاريكاتوريّة.

– مثلاً؟

– يرفض "الإسلاميّون" أن تكون المرأة مساوية للرجل

وأن تتمتّع بنفس الحقوق وأن تقرّر مصيرها بنفسها. وهم مع تطليق المرأة وتعدّد الزوجات.

– ما هو التطليق؟

– يحقّ للزوج أن يطلّق امرأته من دون أن يطلب رأيها ومن دون عرض القضيّة على قاضٍ أو محامٍ. يكفي أن يطلب إلى موظّف حكومي مكلّف القضايا الدينية أن يرسل تبليغاً لزوجته.

– ليس هذا عادلاً.

– لا هو عادل ولا إنساني، إلا أنّ الأمر يتغيّر في بعض الدول الإسلامية التي تتطلّع إلى الحداثة. لقد درجت العادة على القول للمرأة: "يجب عليك طاعة زوجك، وإن لم يكن لك زوج فوالدك، وإن لم يكن لك والد فأخوكِ، إلخ." وليس على المرأة أن تلبس بهذه الطريقة أو تلك. والذين يقولون ذلك يستندون إلى بعض الآيات القرآنية التي لا تمنح المرأة الحقوق نفسها التي يتمتّع بها الرجل، أو إلى آيات أخرى يفسّرونها على هواهم. وآمل أن تُتَّخذ بعض الإجراءات في الدول الإسلامية لتمنع الحطّ من قيمة المرأة أو احتقارها باسم الإسلام، إذ يُفترض أن تكون متساوية مع الرجل على مستوى

الحقوق. والذين يسيئون معاملتها ينسون أنّ الله يكره الظلم والإذلال. فهم أناس حفظوا القرآن بالتأكيد لكنّهم لم يأخذوا منه إلا الآيات التي تناسبهم بمعناها الحرفيّ، علماً بأنّ القرآن يفسح المجال للكثير من التأويلات الأخرى. فهذه المسمّاة "تماميّة" تضرّ بالإسلام وبالمسلمين الحقيقيّين.

– هل هم يتقصّدون ذلك أم هم غير مثقّفين؟

– أسوأهم هم "أنصاف المثقّفين".

– من تقصد بهؤلاء؟

– هم أناس يعرفون القراءة لكنهم لا يفهمون ما يقرأون، يظنّون أنفسهم علماء بينما هم جهلة. وهذا ما يجعلهم خطرين.

– وماذا عن كلمة "أصوليّ"؟

– هي بمعنى كلمة "تماميّ" وتعني العودة إلى الأصول الأساسية في الإسلام، كما لو أنّ العالم لم يتطوَّر.

– و"الجهاد".

– هي تعني "الجهد". وقد فهمها المسلمون أوّلاً بمعنى "مجاهدة النفس" و"مقاومة كل التجارب وضدّ الانسياق إلى الشرّ". في ما بعد استُعملت الكلمة بمعنى الدعوة إلى القتال عندما كان النبيّ يتعرَّض للخطر ويُضطهد على أيدي أهل

مكّة الذين لم يؤمنوا برسالته. وبعد وفاة النبيّ انتشر الإسلام عبر القتال. وفي القرن الحادي عشر عندما قرّر المسيحيّون الذهاب لمحاربة المسلمين، أي القيام بالحملات الصليبية، أفتى المسلمون بالجهاد أي محاربة المعتدين للدفاع عن النفس. واليوم لم يعد لهذه الكلمة من قيمة إذ إنّ الإسلام يستمرّ في الانتشار سلميّاً ولا يواجه حقاً أيّ تهديد، وبالتالي فإنّ من يستعملونها اليوم يعاكسون المعنى، فهم يرمون إلى ترهيب الآخرين.

– ما المقصود بكلمة "فتوى"؟

– هي مشتقة من فعل "أفتى" الذي يعني "أملى". وفي السياق هنا كلمة فتوى تعني رأياً مستمدّاً من الدين لكنّه لا يشكّل قانوناً، ويصدرها شخص متعمّق في فهم القرآن، متخصّص وعالم دين. لكن عندما تصدر فتوى من نوع الأمر بقتل مسلم لأنه كتب أو قال أموراً تُعدّ غير مقبولة، تصبح الفتوى "تعسّفاً" فالإسلام لا يجعل من الفتوى شريعة أو قراراً يجب أن يُطبّق.

– و"الشريعة"؟

– هي نمط مسلكيّ، وأخلاقية رسمها السَّلف من رجال

الدين. وهي تستند إلى القرآن وإلى أحاديث النبيّ. ويرى البعض أنها أكثر من مسلك أخلاقي، أنّها إطار قانونيّ أي مجموعة من الشرائع التي يُفترض بالمسلمين تطبيقها في حياتهم اليومية. لكن ليست الشريعة ملزمة، وليست مطبَّقة في كلّ الدول العربية، إذ يرى معظمها أنّ فيها عودة إلى الوراء ولا تتلاءم مع الحقّ والحياة اليومية.

– و"التساهل"؟

– فعل تساهل يعني "رضي" و"تقبّل"، والمقصود به عملياً هو التالي: "أنا لست مثلك، لست من ديانتك ولا من بلادك ولا أوافقك الرأي ومع ذلك أقبل بأن نعيش جنباً إلى جنب وبأن تمارس ديانتك وتتكلّم لغتك وتفكّر كما تريد، على أن تقبل أنت في المقابل بما أنا عليه". ولا قيمة للتساهل إن لم يكن متبادلاً. أمّا التعصّب (عدم التساهل) فهو عدم القبول لا بل رفض أولئك المختلفين عنّا، وهذا ما يغذّي العنصرية.

– وهل يجب التساهل في كل شيء؟

– كلا، بل يجب تحديداً رفض العنصرية والإذلال.

– ما "الإذلال"؟

– إذلال أحدهم هو إلحاق العار به، وحرمانه من صفته

الإنسانية، أي من كرامته وعزّة نفسه. هو جرحه في الصميم وإلحاق الأذى والظلم به.

– وهل الإسلام ديانة متساهلة؟

– ما من ديانة تكون في بداياتها متساهلة، وكلّ ديانة تعمل على إقناع الناس بأنها فريدة من نوعها والوحيدة التي على حقّ. لكن عندما نقرأ الكتب المقدّسة مثل القرآن ندرك أن الإسلام لم يأتِ لمحاربة اليهود والنصارى، وبالتالي فإنّ الإسلام الذي يعترف بسائر الديانات وبأنبيائها دعا إلى التساهل. وأستشهد لك على ذلك بثلاث آيات تبرهن على أنّ الإسلام ديانة متساهلة. فالآية ٢٥٦ من سورة البقرة تقول: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ وهي تعني أنّه لا يجوز إرغام الناس على اعتناق الإسلام ولا إرغام المسلمين أساساً على التصرّف بموجب قواعد يفرضها مسؤول ما بالقوة. وفي الآية السادسة من سورة الكافرون: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وهذا واضح تماماً، فالمعتقدات الدينية تماماً مثل الأذواق والألوان لا تخضع للنقاش وهي تفرض احتراماً متبادلاً. وفي الآية السادسة والخمسين من سورة القصص ما يلي: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ويتّضح من هذا النصّ

أن الإسلام لا يرغم أحداً على الإيمان برسالته، فلكلّ فرد الحقّ في أن يعتقد بما يريد وأن يحظى بالاحترام كما عليه أن يحترم معتقدات الآخرين، وأخيراً ليس لأيّ إنسان الحقّ في أن ينوب عن الله ويصدر الأوامر إلى المؤمنين، أي بعبارة أخرى إنّ الذي ينصّبون أنفسهم رؤساء دينيين إسلاميين هم على ضلال. فليس في الإسلام إكليروس أي وسطاء بين الله والبشر، ليس فيه لا كهنة ولا حاخامات كما في سائر الديانات. وليس هناك بابا كبابا روما، أي رئيس أعلى يُعتبر ممثل الله على الأرض. هناك أئمّة أي أشخاص مؤهّلون ليؤمّوا الصلاة ويلقوا الخطب في المساجد في أيّام الجمعة. وللإمام سلطة معنوية لكنّه لا يؤدّي نفس الدور الذي يؤدّيه الكاهن أو الحاخام. لكن كما في سائر الديانات، في الإسلام متعصّبون، أي أناس لا يتساهلون مع الذين يخالفونهم التفكير أو المعتقد. وهم أقلّية، وللأسف أقلية ناشطة ومؤذية! هي تسيء إلى المسلمين قبل أن تسيء لغيرهم. ويتصرّف المتعصّبون باسم الإسلام لكنّهم في الغالب أناس أمّيون لم يدرسوا الكتب المقدّسة، وإمّا هم أناس أذكياء يستغلّون الإسلام لكي يؤمّنوا انتشار دعايتهم السياسية أي مصالحهم. هم "أنصاف المثقّفين" المعروفون. وكما قال

أحد الشعراء التونسيّين "إنّ للإسلام أمراضه". ونحن حالياً نعاني من انتكاساتها. وهذا يعيدنا إلى بداية حديثنا، أي إلى الاعتداءات على الأميركيين في ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١.

– لماذا فعلوا ذلك؟

– لأنّهم يظنّون أنّ الأميركيّين مسؤولون عن شقاء بعض الشعوب العربية والإسلامية، ولأنّهم ضُلّلوا على أيدي زعماء نصّبوا أنفسهم قيّمين على العدالة، لأنّهم على ضلال ويرفضون الاعتراف بذلك، ولأنّهم "طُوِّعوا" على أيدي هؤلاء الزعماء الذين تمكّنوا من تعطيل كلّ شكّ عندهم وكلّ فكر. قيل لهم إنّ الله يحبّ الشهداء ويكافئهم بإدخالهم الجنّة، ولم يحظوا بأيّ تعليم على التسامح بغية احترام أفكار الآخرين وحضاراتهم. فالإسلام لم يعلّم قطّ على الكراهية والقتل والانتحار، لا بل إنّه يعاقب عليها بشدّة.

– ومن هو الشهيد؟

– هو الذي يموت "في سبيل الله". والشهيد هو المسلم الذي يموت باسم الإيمان في معركة ذوداً عن الإسلام، ودفاعاً عن نفسه عندما يتعرّض للاعتداء لكونه مسلماً، أو ليحرّر وطنه من الاحتلال الأجنبي. والشهيد بهذا المعنى هو "فدائي".

وقد وعد الله الشهيد بالجنّة.

– ماذا عن كلمة "طالبان"؟

– الكلمة من فعل "طلب"، والطالب هو الذي يطلب المعرفة والتعلّم. وكلمة "طالبان" لا تدلّ على الدارسين بل على حركة دينية نشأت في أفغانستان وتتميّز بكرهها المرأة والفنّ. وهكذا ترهب حركة طالبان النساء وتحرّم عليهنّ الذهاب إلى المدرسة والعمل في المؤسّسات الرسمية وممارسة الرياضة وسماع الموسيقى، وعندما يمرضن لا يُمنحْن العناية اللازمة، وهم يقتلون من يعتبرونها فاسقة برجمها بالحجارة، ومن يتّهمونها بالخيانة الزوجية تُدفن حيّة... ممارساتهم من أزمنة بائدة، فهم مثلاً يقطعون يد السارق أو ينفّذون حكم الإعدام بالمتّهم في ملعب لكرة القدم من دون محاكمة. هم يعرفون بعض الآيات القرآنية لكنّ معظمهم يجهل القراءة والكتابة، ويقدمون على كلّ ذلك باسم الإسلام.

– هم مجانين!

– نعم مجانين وخطرون، وجهلة متوحّشون. هم يجهلون الإسلام وحضارته. ولو تُركت الأمور بيدهم لقضوا كلّياً على هذه الحضارة.

- هل صحيح أن الإسلام يحرّم فنّ الرسم؟

- كلا، ليس هذا صحيحاً. المحرّم فيه هو رسم الله والنبيّ محمّد على أساس أنّه لا يجوز تصوير وجهيهما، لأنّ الله روح فكيف يمكن رسمه؟ أمّا النبيّ محمّد فإنّ روحه هي الأمر الجوهري فيه، ولا يجوز تمثيل وجهه. وغير ذلك يمكن رسم أيّ شخص وأيّ شيء. ففي بلاد فارس إرث عريق وجميل في فنّ الرسم والتصوير، هو المنمنمات الزخرفية التي تزيّن المخطوطات القديمة.

- بات الأمر مفهوماً حتى الآن! فهناك الإسلام وهناك مسلمون. بعضهم فهم رسالة النبيّ والبعض الآخر أساء فهمها أو يتظاهر بأنّه فهمها ويريد العودة إلى الوراء. لكن قلْ لي ألا يمكن تغيير بعض الأمور في الإسلام؟

- نحن نعيش في عصر حديث وأنتِ تريدين أن يتكيّف الإسلام مع هذه الحياة الحديثة. الحقّ معك. لكن الذين حاولوا أن يغيّروا بعض الأمور في الوجهة الإيجابية، مثل تحسين أوضاع المرأة، واجهوا صعوبات كثيرة. ففي الإسلام، كما في سائر الديانات، هناك أمور نهائية وأخرى عابرة، أي تصلح لعصر محدّد لا لكل العصور. وتكمن المشكلة في كون البعض

يرى أنّ كلّ شيء نهائي ولا يمكن زحزحته، فيما يقول آخرون إنّه يمكن تكييف هذه الديانة مع العصر الذي نعيش فيه. وإن كان لا يمكن تطبيق الحرّية في بعض الدول الإسلامية فكيف تريدين المسّ بالديانة؟ وكما قلت لك منذ أيام إنّ الأهمّ والملحّ هو في إبعاد الدين عن السياسة. وما دام الحكّام يستندون إلى الدين فسنبقى نواجه المشاكل والأمراض، مثل التعصُّب وما ينتج منه، أي الإرهاب والجهل.

- ماذا يعني ذلك؟

- إنّ الإسلام، على غرار سائر الديانات، لا يؤيّد كثيراً مساواة المرأة بالرجل، حتى وإن كان قد ضمن لها بعض الحقوق. واليوم تحاول المجتمعات الإسلامية أن تتطوّر. وما يجري تجاهله هو أن خديجة، أولى زوجات النبي، كانت سيّدة أعمال وتاجرة تقوم بأعمال الرجال. فبالإمكان التمثّل بوضعها وبدورها من أجل إصلاح ظروف حياة المرأة اليوم. والإسلام لا يحرّم القوانين التي تمنح المرأة حقوقها، لكن من يخاف أن يقيم المساواة في الحقوق بين الجنسين هم الرجال. وحدها تونس غيّرت قوانينها لتمكّن المرأة من الدفاع عن نفسها بنحو أفضل. أمّا في السعودية فلا يحقّ للمرأة حتى قيادة

سيّارة. أمّا المرأة الأفغانية فقد مُنِيَتْ بالقانون الأكثر وحشية، أي قانون حركة طالبان. لكنّ جماعات طالبان هم أناس لم يفهموا شيئاً من الإسلام وقد شوّهوا صورته لدرجة أنّ كلّ المجتمع المسلم يعاني من ذلك وما يزال. وقد دمّروا تماثيل بوذا التي تعود إلى عدّة قرون وتُعدّ من التراث العالمي.

– ما العمل إذاً؟

– المطلوب مكافحة الجهل، وهو أساس التعصّب وعدم التسامح. ليس هناك أخطر من الذي لا يعرف شيئاً ويعتقد أنه يعرف كلّ شيء. ومن حسن الحظّ أن النساء المسلمات ينتظمْنَ في جمعيات للمطالبة بحقوقهنّ. هناك عمل كثير يجب القيام به للتوصّل إلى حالة العدالة.

– وكيف يمكن النضال؟

– يجب البدء بالمدرسة. يجب أن تلتحق الفتيات بالمدارس حتى النهاية وأن يُرفض سحبها منها بمجرّد أن تصل إلى سنّ البلوغ. ومن جهة أخرى يُفترض بالدول العربية والإسلامية أن تعيد النظر في الكتب المدرسية وأن تصوغها من جديد واضعة نصب أعينها التسامح واحترام حقوق الإنسان رجلاً كان أو امرأة، متمثّلة بكبار العلماء

المسلمين الذي أسهموا في تقدّم الحضارة العالمية، كما عليها أن تلغي من هذه الكتب الأمثلة التي تؤدّي إلى الانغلاق الفكري والتي تجعل الولد يعتقد أنّ من الطبيعي أن يضرب الرجل المرأة أو أن على المرأة أن تلازم بيتها عندما يكون الرجل في عمله، إلخ. ويجب تعليم الإسلام جنباً إلى جنب مع سائر الديانات، وإخبار الحقيقة عن انتشاره الذي ما كان ليتحقّق لولا الحروب. ويجب إخبارهم أيضاً أن الزمان تغيّر وأنّ الحياة لم تعد كما في زمن النبيّ. بعبارة أخرى يحقّ للإنسان، مع احترامه رسالة النبيّ ومع إيمانه بالله، أن يتطوّر، أي أن يتكيّف مع الحياة الحديثة من دون التخلّي عن معتقداته ولا عن قيمه الأساسية. ويجب أن توفّر للطالب كلّ الإمكانيات لكي يكون صاحب رأي خاصّ به. فمن المهمّ جداً منح الولد الحرّية لكي لا يقع تحت تأثير ديانة أو أخرى. وبعبارة أخرى ما هو مطلوب عملٌ جبّار لكن المهمّ البدء به، كما بدأنا معاً الآن. ولأنهي هذا الحديث معك اعلمي أنّه يمكنني أن أعرض عليك مئات الكلمات من أصل عربيّ مستعمَلة باللغة اللاتينية وبغيرها، ولا أحد يشكل في أصلها.

– هل حرف "إكس X" من أصل عربيّ؟

– قد يكون من المستغرب أنّ هذا الحرف غير موجود في الأبجدية العربية، إلّا أنّ علماء الرياضيّات العرب رمزوا إلى العدد المجهول بكلمة "شيء"، وبالمختصر "ش ch"، وفي اللغة الإسبانية القديمة كان حرف "X" يلفظ "ش".

– أنت تعرف كثيراً في هذه الأمور!

– كلا، بل وجدت كلّ هذه الكلمات في القاموس. وأختم هذا الحوار بكلام يروى عن النبي بما معناه: "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد"، "من يطلب العلم كأنما تعبّد لله" و"دراسة العلم تساوي الصوم، وتعليم العلوم يساوي الصلاة". فقد اعتبر النبيّ أن تحصيل العلم هو بأهمّية ركنين من أركان الإسلام، صوم رمضان والصلاة اليومية.

ملاحق

في ما يلي نصوص بعض المحاضرات والمقالات التي نشرها الطاهر بن جلون في مختلف الصحف الأوروبية في السنوات العشر الأخيرة.

البرقع

(مقال نُشر في صحيفة *La Repubblica* في ١٠ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٩)

ما هو البرقع؟ هو نوعٌ من رداء، أسود اللون غالباً، يغطّي المرأة من رأسها إلى قدميها، فيه فتحة على مستوى العينين فقط، وهو ما ترتديه النساء الأفغانيات عند خروجهنّ من المنزل. ولا علاقة لهذا الزيّ بالإسلام بل هو من طبيعة التقاليد في بعض مناطق هذا البلد. وقد بالغ بعض الأصوليّين المغاربة في التمثّل بهذا التقليد إلى حدّ إرغام زوجاتهم وشقيقاتهم وبناتهم على اعتماد هذا الزيّ الذي لا يتماشى إطلاقاً مع

أعراف المغرب، وباتت تُشاهد أكثر فأكثر، في المغرب والجزائر، نساء مكسوّات كلّياً بالأسود (مع ستر الذراعين واليدين بقفازات)، يتجوّلن في الشوارع كالأشباح.

وصلت هذه الظاهرة اليوم إلى فرنسا، وهي، وإن بقيت هامشية ومحصورة بأقلّية محدودة جداً، تصدم الناس الذين لم يألفوا أن يكونوا بجانب امرأة لا يمكن رؤية وجهها. وعبثاً كان التشديد على أنّه لم يرِد في الإسلام أبداً ما يوجب على المرأة التحجّب بهذه الطريقة، فهذه الظاهرة تسهم في تشويه صورة هذه الديانة التي تُتَّهم زوراً.

فهل يستدعي ذلك تشكيل لجنة خاصّة ومنحها حتّى صلاحيات تشريعية بموجب مرسوم أو قانون؟ إنّ في ذلك شيئاً من المبالغة، فهناك أساساً قانون يمنع ارتداء الحجاب في المدارس والإدارات والمستشفيات. فقد أعلن نيكولا ساركوزي بدوره، في الخطاب الذي ألقاه في ٤ حزيران/ يونيو عام ٢٠٠٩، على غرار باراك أوباما، أنّه "يحق لأيّ صبيّة ارتداء الحجاب إن هي أرادت ذلك". لكن كان عليه أن يحترم نصّ القانون ويضيف موضحاً "في حياتها الخاصّة".

إنّنا نشاهد يومياً إعلانات يُستغلّ فيها جسد المرأة بشكل

فاضح للتسويق لماركة سيّارات أو شامبو الشعر أو الشوكولاته، من دون أن يصدم ذلك أحداً. وهذا ما يمكن أن يسري عند رؤية امرأة بالبرقع في الشارع. فالكلّ حرٌّ في أن يرتدي ما يحلو له، حتى إن كان من المعلوم أنّ وراء ارتداء هذا الزيّ تعبيراً عن موقف إيديولوجي وعن عدائيّة تجاه الغرب الذي هاجرت إليه تلك العائلات. المشهد صادم بالطبع، لكن ما دام محصوراً بأقليّة صغيرة جداً، فإنّه لا يستحقّ العودة إلى وضع تشريعات خاصّة بهذه المسألة. هنالك الكثير من شابّات الـ"بانك Punk" ذوات الألبسة الغريبة الشاذّة والـ"قوطيات gothiques" المتحذلقات، أو أخريات من اللواتي يعلّقن الأقراط في مواضع كثيرة من أجسامهنّ ويبالغن في رسم الوشوم عليه، ولم تُشكَّل لجنة برلمانية لمنع تلك الممارسات.

يجب البدء بالتمييز بين ما هو ديني وما هو من باب التقاليد. فالبرقع ليس فريضة دينية، وهو يكشف عن مدى خوف الرجل من المرأة، فيبذل المستحيل ليحجّبها ولكي لا يراها إلّا هو دون غيره. فهي إذاً مسألة تدخل في مجال التحليل النفسي والطبّ النفسيّ أكثر منها بالإيمان. إنّ الخوف من الناحية الجنسية عند المرأة هو في أساس التعصّب الديني، وهذا ما

ينطبق على كلّ أشكال التعصّب، إسلامياً كان أو يهوديّاً. وفي الكتب المقدّسة تحوم شبهات كثيرة حول المرأة، بينما في الإسلام يتوجّه الله إلى المؤمنين والمؤمنات على حدٍّ سواء، حاضّاً الإنسان على الاضطلاع بحرّيته ومسؤوليته. لقد أضفى القرآن طابعاً إنسانياً على وضع المرأة مانحاً إيّاها حقوقاً شرعية لم تكن تتمتّع بها قبل الإسلام، واعداً إياها كمؤمنة صادقة بمرتبة أمام الله مضاهية لمرتبة الرجل (سورة فاطر، ٣٣). غير أنّ من يقرأون النصّ قراءة حرفية يفسّرونه بشكل كاريكاتوري.

أتى القرآن على ذكر الحجاب على أثر تشكّي بعض النسوة ممّا يتعرّضْن له من مضايقات ليلاً عند خروجهنّ لقضاء بعض الحاجات المنزلية، إذ كان بعض الرجال يعتقدون أنهنّ نساء فاقدات العفّة ممَّن يمتهنّ الدعارة. فنزلت آية تنصح النساء بلبس منديل يغطّي شعورهن اتّقاءً لذلك (الأحزاب، ٥٩).

خطوة واحدة فصلت بين تلك الآية وتحجيب الأزواج نساءهن من الرأس إلى أخمص القدمين، خطاها بعض المتعصّبين عبر العالم باستخفاف. ليس البرقع سوى صورة كاريكاتورية عن تأويل النصّ الديني بشكل مبالغ فيه، وهو يفضح الخوف الهائل الذي يعتري الرجل من المرأة التي لا

يمكنه أن يتحمّل وجودها إلّا محرومة من كلّ حرّية. فليس هذا من الإسلام في شيء بل هو ينمّ بالأحرى عن تمييز مرضي بين الجنسين.

سيّارة البورش والشبح

(مقالة نُشرت في صحيفة *Le Monde* في ٢٧ و٢٨ أيلول/ سبتمبر عام ٢٠٠٩)

يلفتنا أحياناً صدام الحضارات في مواقف سخيفة أو تصرّفات غبيّة هي وليدة التعجرف والجهل. فعندما كنت في جنوب المغرب شهدت واقعة غريبة.

وصلت سيّارة مكشوفة بسرعة كبيرة إلى طريق ضيّق مليء بالحفر. كانت سيّارة رياضية، من نوع "بورش" على ما أظنّ. سيّارة غالية الثمن، يوازي سعرها ثمن حقل أو مدخول حياة من العمل في الخارج أو راتب أمير. توقّفت السيّارة بالقرب منّي. كان يقودها رجل شاب، حليق الرأس على الموضة، على عينيه نظارة شمسيّة، وبين شفتيه سيجارة وفي يده هاتف خلوي. بدا الشاب فخوراً بسيّارته وهو يعرّف المرأة الجالسة بجانبه إلى البلد. كانت متلحّفة برداء أسود، وفي يديها قفّازان

سوداوان وعلى فتحة حجابها عند مستوى العينين نظارة شمسية. كانت أشبه بشبح، بشيء لا يكاد يتحرك ولا يتكلم إطلاقاً. ذكّرني ذلك بالصفحات الأخيرة من كتاب *Voix de Marrakech* [صوت مراكش] لإلياس كانيتي Elias Canetti (Albin Michel, 1996) حيث يتحدّث عن شيء أسود كأنّه يتحرّك، لكن لا يمكن رؤية جسمه ولا أيّ عضو من أعضائه. فيه شخصٌ ما، ربّما.

نزل الشاب من البورش وأشعل سيجارة وقال بالفرنسية: "كم أن بلادي جميلة!" هزّت المرأة المتلحّفة بذاك الكفن الأسود رأسها، من دون أن تنبس بأيّ كلمة. ثمّ بادرني من دون أن أوجّه إليه أيّ كلام: "لقد تزوّجت للتوّ، وسأسافر مجدّداً وأصطحبها. لكن هناك مشكلة الأوراق، يريدون صورة هويّة لها تبدو فيها مكشوفة الوجه، هم مجانين. الله أكبر!" ومرّ بيده عدّة مرات على رَفْرَف السيّارة كمن يداعب ساق صبيّة عارية. وأدركت من لهجته أنّه من أبناء الريف. كان يقود سيّارة سريعة كما لو أنّه مستعدّ للتسابق بها إلى القمر ويعامل زوجته أو تلك المفترض أنّها زوجته كما لو أنّها عبدة أو شيء أو حزمة موضّبة في جهاز دفن الموتى. كان يتكلّم عبر هاتفه الخلويّ ويتكلم

باللغة الهولندية، وبدا من لوحة تسجيل السيّارة أنّه قدم من روتردام. فهل سيرافقه ذلك الشيء إلى البلد الذي هاجر إليه، أم سيكلّف والديه بإرسال الحزمة إليه بالبريد؟

وانطلق مغادراً من دون أن يتحرَّج من إغراقنا في غيمة من الغبار غاب وراءها الشيء الأسود عن الأنظار.

لم أشعر برغبة في التحدّث إليه إذ لا جدوى من ذلك. لا بدّ من أنّه يخاف النساء، وهذه مشكلة نفسيّة هي من اختصاص الطبّ النفسي. فهو يخشى أن تُسلب منه زوجته أو أن تغتصبها النظرات أو أن تُشتهى في الأحلام. فليحرسها إذاً في انتظار أن تنتفض يوماً وتثأر لنفسها! وقد سبق أن حدث شيء من هذا القبيل.

شخصٌ من هذا النوع يجسِّد بحدّ ذاته، وهو ابن القرن الحادي والعشرين، ذهنية العصر الحجري بكلّ تناقضاتها، فيستعمِل التقنيّات الأكثر تطوّراً فيما يعامل زوجته بكلّ احتقار.

وموقف من هذا النوع شجبته بكلّ شجاعة وقوة امرأة عربية، هي معالجة نفسية مقيمة في لوس أنجلس، أثناء مناقشتها الموضوع على شاشة قناة الجزيرة مع أحد الفقهاء المصريّين.

وقد سجّلت حديثها وإليكم مقتطفات منه: "ما نشهده اليوم ليس صدام حضارات، بل تعارض بين ذهنيات القرون الوسطى وذهنيات القرن الحادي والعشرين، بين التمدّن والتخلّف، بين الوحشية والعقلانية، بين الديموقراطية والديكتاتورية، بين الحرّية والقمع. إنّه صدام بين حقوق الإنسان من جهة، وانتهاك هذه الحقوق من جهة أخرى، صدام بين من يعاملون المرأة كبهيمة ومن يعاملونها كإنسان...".

كانت هذه المرأة، الحاسرة بالطبع، تتكلم بهدوء وتشدّد على كلماتها فاضحة عالماً يسوده الخبث والظلاميّة على حقيقته. وعندما جاهرت بالصوت العالي بأنّها علمانية وبأنّ الإيمان هو من خصوصيّات الإنسان صرخ محاورها مذعوراً: "أنت ملحدة، ملحدة، أنتِ عدوّة الإسلام!".

شئنا أو أبينا، هناك عالمان يتصادمان اليوم، هما عالم الحرية وعالم الهمجيّة، هذه الهمجيّة التي دمّرت التماثيل البوذية في أفغانستان وحرَّمت على المرأة التعلُّم أو التعليم في المدارس، وتلقّي العلاج الطبّي على يد طبيب رجل، والضحك بصوت عالٍ والاستماع إلى الموسيقى أو التبرُّج (بُتِرت أصابع بعض النساء لأنّهنّ طليْنَ أظافرهنّ) إلخ. إنّها الهمجيّة التي ترسل

شباباً ليفجّروا أنفسهم في أماكن عامّة، تلك التي تهدّد السلام في العالم مدّعية الانتماء إلى إسلام هو براءٌ من هذه الوحشيّة وهذا الجنون. وبحسب ما صرّحت تلك المرأة الجريئة "على المسلمين أن يتساءلوا ما الذي يمكن أن يقدِّموه للبشرية قبل مطالبة البشرية باحترامهم!".

ومن العبث القول تكراراً إنّ أفغانستان وطالبان فيها لا يمثّلون الإسلام، وإنّ ما يرتكبونه يتعارض كلّياً مع روحية القرآن وحرفيته، فهم يتصرَّفون باسم هذه الديانة وينجحون في إغواء قسم من الشباب المسلم، سواء من المقيمين في أوروبا أو في المغرب العربيّ.

رحل المهاجر الشاب في سيّارته البورش السوداء مع المرأة الملتحفة بالأسود مقتنعاً بأنّه مسلم صالح، ابن عصره، والأرجح أنّه لن يكون زوجاً مخدوعاً!

النقاب وجائزة ونوبل

(مقالة نشرت في صحيفة *Lavanguardia* في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٣)

كانت هناك عائلة من آل ليفي، مؤلَّفة من والدٍ يهوديّ، محامٍ وملحد ومناضل ضدّ العنصرية، والأم من قبائل الجزائر من الطائفة الكاثوليكية، وجدّة نشأت على التقاليد المحافظة والمسالمة في الديانة اليهودية، وأخيراً من صبيّتين، ألما وليلا، تحوّلتا إلى الإسلام من دون أن يكرههما أحد على ذلك، وكانتا فخورتين بذلك إلى حدّ المجاهرة به علناً بارتدائهما الحجاب في المدرسة.

لم تلبث الفتاتان أن طُردتا نهائياً من الثانوية فطعن الوالد بالقرار واحتدم السجال في الصحافة حول هذه القضيّة التي هزّت فرنسا. إنّها حالة تثير الاستغراب لأنّ فتاتين تربّتا على مبادئ العلمانية والقيم الإنسانية الحديثة تغيّر شكلهما

بوضعهما الحجاب ولم يكن في حياتهما ما هيَّأهما لاعتناق الإسلام وممارسته بهذه الطريقة المتشدّدة.

يجب القول إنّ النقاب أو الحجاب ليسا مجرّد قطع قماش لستر الرأس وخصوصاً الشعر، بل هما من نوع المؤشّرات السياسية والرموز الإيديولوجية. فحتى وإن لم تدرك الصبيّتان ذلك، كانت النظرة إليهما على أنّهما مواطنتان فرنسيتان أرادتا تأكيد انتمائهما الديني في حيّز عامّ وعلماني، ومن هنا برزت المشكلة، إذ إن فرنسا ناضلت عشرات السنين من أجل فصل الدين عن الدولة. ويشكّل الخامس من كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٠٥ محطّة مفصلية تاريخية مع انتصار الفرد ككيان مستقلّ ومعترف به، وانتصار الديموقراطية وحرّية التفكير والمعتقد، على أن يبقى الانتماء الديني مسألة خاصّة وذاتيّة من دون التعبير عنه علناً بصخب واندفاع.

ما نشهده اليوم من ظهور مؤشّرات التباهي بالانتماء الديني مثل لبس الحجاب في مكان عام، يطرح إعادة النظر في هذا المكسب الأساسي الذي حقّقته الجمهورية. والإسلام تحدّث عن ارتداء المرأة الحجاب عندما تصلّي، وهذا من باب الاحتشام واحترام العلاقة بين الإنسان والله. فخديجة

مثلاً، زوجة النبي محمّد الأولى، التي كانت صاحبة قوافل تجارية، لم تكن محجّبة. فالمطلوب من المرأة المسلمة هو عدم إثارتها غريزة الرجل بارتدائها ملابس تبرز مفاتن جسدها، كما نجد هذا النوع من التحذير عند اليهود والكاثوليك على حدٍّ سواء.

في مقرّ بلدية باريس ارتدت إحدى المساعدات الاجتماعيات الحجاب ورفضت مصافحة الرجال، فاضطرّ رئيس البلدية إلى وقفها عن العمل. فالدين عندما يُفهم بهذه الطريقة السطحية والتبسيطية يصبح مشوّهاً.

قد تضطرّ الدولة الفرنسية إلى وضع تشريعات في هذا المجال باقتراحها على الجمعية الوطنيّة إقرار قانون يمنع إبراز أيّ رمز ديني في الأماكن العامة (المدارس، الإدارات، المستشفيات، الخ.)[1]، فتفتح بذلك المجال أمام المسلمين ليثبتوا أنّ الإسلام يمكن أن يعيش في مجتمع ديمقراطي وحديث.

تعمّ هذه الظاهرة أوروبا كلّها، ومن غير المقبول أن تكون

١ عام ٢٠٠٤ أقرّت الجمعية الوطنيّة قانوناً يمنع ارتداء ما يُعدّ من الرموز الدينية في المدارس الرسمية.

العلمنة موضع تشكيك من هؤلاء المواطنين الجدد في أوروبا هذه التي تريد أن تكون مختلطة ومتعدّدة الثقافات ومنفتحة على العالم، لا مكان فيها للتعصّب على الأخصّ وألا تصبح رهينة الأصولية الدينية.

وأخيراً صدر خبران سارّان ينعشان الآمال، الأوّل هو خبر منح جائزة نوبل للسلام لعام ٢٠٠٣ لشيرين عبادي، المحامية الإيرانية التي تمارس إسلامها من دون مظاهر تباهٍ. وتستحقّ الأكاديمية التهنئة لأنّها ميَزّت هذه المناضلة من أجل حقوق الإنسان والمرأة. وقد هدّدها بعض الأصوليين بـ"قطع لسانها"، وبالتأكيد لا تتورَّع الوحشية عن أيّ عملٍ من هذا النوع.

أمّا الخبر الثاني فقد أتانا من المغرب حيث أعلن الملك محمّد السادس رسمياً سلسلة من التغييرات التي حرّرت الزوجة من الطاعة العمياء للزوج، وجعلت الزوجين معاً مسؤولين عن الأسرة، ورفعت سنّ زواج الفتاة من ١٥ سنة إلى ١٨ سنة، وأخضعت التطليق وتعدّد الزوجات لضوابط قانونية من شأنها أن تقضي عملياً على هذين التقليدين، وأصبح حكم الطلاق من صلاحية القضاء ولم يعد مرتبطاً بقرار اعتباطيّ من الرجل.

سيتخلّص المجتمع المغربي في النهاية من قانونه القديم للأحوال الشخصية الذي يعامل المرأة كشخص دونيّ عليها الحصول على موافقة والدها أو شقيقها لتتزوّج. وبذلك يجاري المغرب النموذج التونسي الأكثر تطوّراً في كلّ العالم العربي، وتتقدَّم على النموذج الجزائري بقانونه الأكثر تخلّفاً في المنطقة.

قد تصدر بعض أشكال الممانعة في المجتمع التقليدي والديني، لكن ذلك يبقى خطوة متقدِّمة في مسار تطبيق الديموقراطية الجاري في المغرب. وتبقى إعادة النظر في مسألة الإرث الذي تطبَّق فيه الشريعة الإسلاميّة التي تمنح المرأة حصة واحدة من الميراث مقابل حصّتين للشقيق. هذا ما كان صالحاً في زمنٍ لم تكن المرأة تعمل فيه، أمّا اليوم فلم يعد متماشياً مع روح العصر. لكن إصلاح هذا العرف يتطلّب وقتاً والكثير من الجرأة والشجاعة، إذ ما إن يصل الأمر إلى القضايا الماليّة حتّى ينقلب الناس ويفقد البعض عقله ومنطقه.

إنّ المرأة هي التي تحقّق التطور، والعالم العربيّ والإسلاميّ يدين للمرأة بكل ما تغيّر وسيتغيّر. فالمرأة هي حقّاً مستقبل الرجل ومستقبل الإسلام.

عدالة على الطريقة السعودية

(مقالة نُشرت في صحيفة *La Repubblica* في ٥ كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٧)

في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٧ اطّلعت عبر موقع الصحيفة الفرنسية الإلكترونية "rue 89.com" على خبر غريب. قرأت عنوان المقال: "المملكة العربية السعودية: ٢٠٠ جلدة لامرأة تعرَّضت للاغتصاب". قلت في نفسي: "هذا لا يكفي، بل هناك بعض التطوّر. فالمغتصِب يستحق ما هو أكثر من الجلد، يجب أن يتعفَّن في السجن لبضع سنوات." وتابعت القراءة لأكتشف أنّ الضحيّة، أي المرأة المغتصَبة، هي التي تعرّضت لمئتي جلدة. فقد حُكم عليها بداية بتسعين جلدة (فقط). لكنّها بالتوافق مع محاميها استأنفت الحكم. كيف ذلك؟ هل يجوز الاعتراض على قرار القضاء ورفع الصوت للتذكير بأنّ الضحيّة تستحقّ التعويض؟ هذا أمر لا

يُعقل، وهذه المرأة التي تجرّأت على التشكيك في الحكم تستحقّ عقوبتين، وبناءً على ذلك ضوعف الحكم مع زيادة عشرين جلدة في مواضع من جسمها تؤلم من دون أن تترك أثراً. وسيكون هذا درساً لها كيلا تعرّض نفسها للاغتصاب على أن تكون أمثولة لغيرها من النساء!

هكذا يعمل القضاء في السعودية. لكن ماذا عن المغتصِب أو المغتصبين؟ كانوا ستة وقد صدرت بحقّهم أحكام بالسجن تراوح بين سنتين وتسع سنوات. أمّا محامي المرأة، عبد الرحمن اللحّام المعروف بنضاله من أجل حقوق الإنسان في بلده، فقد نزل به هو أيضاً حكم جائر. لقد أكّد لوكالة الصحافة الفرنسية أنّ محكمة مدينة القطيف الصغيرة سحبت منه رخصته ولم يعد قادراً على ممارسة مهنته.

إنّها لطريقة غريبة في إحلال العدالة. فبحسب ما فهمت فإنّ المرأة عوقبت لأنّها إن كانت تعرّضت للاغتصاب على أيدي عصابة من ستّة رجال، فذلك لأنّها استجلبت ذلك على نفسها. وبعبارة أخرى، لقد استفزّت هؤلاء "الأشخاص الطيّبين"، وإلاّ لما تعرّضت لهذه الفضيحة الصادمة. وهذا منطق معروف ورائج أيضاً في أوروبا. فكم من مرّة سمعنا أناساً يقولون إنّ

عدالة على الطريقة السعودية

(مقالة نُشرت في صحيفة *La Repubblica* في ٥ كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٧)

في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٧ اطّلعت عبر موقع الصحيفة الفرنسية الإلكترونية "rue 89.com" على خبر غريب. قرأت عنوان المقال: "المملكة العربية السعودية: ٢٠٠ جلدة لامرأة تعرَّضت للاغتصاب". قلت في نفسي: "هذا لا يكفي، بل هناك بعض التطوّر. فالمغتصِب يستحق ما هو أكثر من الجلد، يجب أن يتعفَّن في السجن لبضع سنوات." وتابعت القراءة لأكتشف أنّ الضحيّة، أي المرأة المغتصَبة، هي التي تعرّضت لمئتي جلدة. فقد حُكم عليها بداية بتسعين جلدة (فقط). لكنّها بالتوافق مع محاميها استأنفت الحكم. كيف ذلك؟ هل يجوز الاعتراض على قرار القضاء ورفع الصوت للتذكير بأنّ الضحيّة تستحقّ التعويض؟ هذا أمر لا

يُعقل، وهذه المرأة التي تجرّأت على التشكيك في الحكم تستحقّ عقوبتين، وبناءً على ذلك ضوعف الحكم مع زيادة عشرين جلدة في مواضع من جسمها تؤلم من دون أن تترك أثراً. وسيكون هذا درساً لها كيلا تعرّض نفسها للاغتصاب على أن تكون أمثولة لغيرها من النساء!

هكذا يعمل القضاء في السعودية. لكن ماذا عن المغتصِب أو المغتصبين؟ كانوا ستة وقد صدرت بحقّهم أحكام بالسجن تراوح بين سنتين وتسع سنوات. أمّا محامي المرأة، عبد الرحمن اللحّام المعروف بنضاله من أجل حقوق الإنسان في بلده، فقد نزل به هو أيضاً حكم جائر. لقد أكّد لوكالة الصحافة الفرنسية أنّ محكمة مدينة القطيف الصغيرة سحبت منه رخصته ولم يعد قادراً على ممارسة مهنته.

إنّها لطريقة غريبة في إحلال العدالة. فبحسب ما فهمت فإنّ المرأة عوقبت لأنّها إن كانت تعرّضت للاغتصاب على أيدي عصابة من ستّة رجال، فذلك لأنّها استجلبت ذلك على نفسها. وبعبارة أخرى، لقد استفزّت هؤلاء "الأشخاص الطيّبين"، وإلاّ لما تعرّضت لهذه الفضيحة الصادمة. وهذا منطق معروف ورائج أيضاً في أوروبا. فكم من مرّة سمعنا أناساً يقولون إنّ

"هذه المرأة، بسبب طريقة لبسها، أثارت هذا الرجل الذي لم يتمكن من لجم غرائزة الدنيئة!".

إنّ المملكة العربية السعودية هي قوة كبرى في منطقة الخليج العربي، وهي تؤدّي دوراً مهمّاً في المنطقة وحتى في العالم، بفضل نفطها وموقعها كحامية لأماكن الإسلام المقدسة وعلاقاتها المميّزة مع أميركا. لكن، بالرغم من مليارات الدولارات وجيشها المتطوّر، يبقى نظامها القضائي والاجتماعي متخلّفاً جدّاً، وما تزال تطبّق نظماً بالية من زمن كان فيه النفط ما يزال دفيناً تحت الرمال.

في بلد يرغم المرأة على التحجّب ويمنعها من قيادة سيّارة أو المساهمة في تطوّر المجتمع، هناك ما يعوق عملياً تحقُّق الحداثة. إن الحداثة بما هي صعود الفرد ككيان فريد ومتميّز هي قيمة مقموعة على اعتبار أنّها مظهر غربيّ، بينما هي عالمية والعرب كانوا أربابها ما بين القرنين التاسع والثاني عشر، في عصر الأنوار الذي شهده العالم العربي والإسلاميّ.

تندرج قصّة المرأة المغتصَبة ضمن مفهوم بدائي على الأخصّ للعلاقات بين الرجل والمرأة. فمع أنّ النبيّ محمّداً، الذي كانت زوجته الأولى سيّدة أعمال وتكبره سنّاً، شكّل

طوال حياته مثالاً يُحتَذى في تقدير المرأة واحترامها، يبالغ بعض المسلمين اليوم في سعيهم إلى محاصرة المرأة في وضع دونيّ، وإلى إقصائها عن الحياة على الأخصّ. وأساس هذا التصرّف هو الخوف، الخوف من أن تفلت المرأة من قبضة زوجها، والخوف من أن تعبّر عن رغبتها في الحرّية والانعتاق.

ليس المطلوب تغيير الإسلام، بل المسلمين!

(مقالة نُشرت في صحيفة *Espresso* في ٢٧ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ٢٠٠٩)

ترسِّخ كلّ الأديان قِيَمها ورسالتها على نحو نهائي لا لبس فيه، وتكوِّن عقيدة مقدّسة لا تُمسّ ولا تتغيّر. وهذا معطًى ثابت في كلّ ديانة توحيدية. ولصاحب العقيدة، "المؤمن" تحديداً، حرّية تفسير النصوص وتحميلها معنى مسؤولاً ومنطقيّاً حتّى. فالإيمان بالله لا يلغي مطلقاً حرّية التفكير، بل بالعكس، إنّ الله يحثّ على تلك الحرّية ويشجّع الإنسان على التمتّع بها لكي يكون إيمانه مرتكزاً على هذه القيمة الجوهرية.

وفي تاريخ الإسلام الكثير من المحطات التي بُذلت فيها محاولات لعقلنة الفكر والعمل الإسلاميّين. فمذهب المعتزلة مثلاً أعطى القرآن تفسيراً متميّزاً بقدرة العقل السامية معتبراً أنّ الله هو "عقل" بحدّ ذاته. وقد ناهض هذه المدرسة ممثّلو التيّار

المحافظ والتقليدي، إذ رفض هؤلاء بشدّة مفهوم حرّية الاختيار عند الإنسان. وقد بلغ هذا السجال أشدّه في القرن التاسع عندما بدأ البحث في طبيعة كلام الله. فهل القرآن "مخلوق" (كما رأى العقلانيّون) أم "غير مخلوق" (بحسب رأي التقليديين)؟ وفي ذلك وجهتا نظر متناقضتان إلى العالم، وقد فازت نظرة التقليديين المتمسِّكين "بحرفيّة" النصّ. والإسلام السائد اليوم في دول الخليج العربيّ، مثلاً، يتبع فكر محمد بن عبد الوهّاب (من القرن الثامن عشر)، أي المذهب الوهّابيّ، وهو نظام يطبّق الشريعة بما كانت عليه في القرن السابع، كما لو أنّ العالم لم يتغيّر ولم يتطوّر منذ ذلك العصر. والسؤال الذي يطرح نفسه هو حول كيفية قراءة القرآن والتفكير فيه. فهل يجب أن نقرأه بطريقة مسطَّحة أم علينا أن نعيد لهذا الكلام كل ما فيه من عمق كون غِناه يكمن في اعتماد الرموز والأمثال؟

إنّ مغالاة الناشطين الأصوليين وجهلهم الواضح للأبعاد المعنوية العميقة في القرآن، أي لتفسيراته البشرية والعقلانية المتكيّفة مع العصر، باتت اليوم تعطي نتائج عكسية ولا تضرّ بالإسلام وحسب بل بمشروعهم الاجتماعي. وقد يأتيني الردّ على ذلك بأنّ أعداد النساء المحجّبات ترتفع، وبأنّ ارتياد

المساجد يتزايد باستمرار، وبأنّ الهويّة المسلمة تفرض نفسها بمزيد من القوة في مواجهة الغرب. لكن صحيح أن النزعة المحافظة تسجّل بعض التقدّم، إلا أنّ المؤمنين بإسلام هادئ ومسالم ورزين تتزايد أعدادهم أكثر فأكثر. وربّما هم لا يُظهرون أنفسهم دوماً وليس عندهم وسائلهم الإعلاميّة، ولا يتجرّأون على مواجهة الأصوليين المستعدّين لإصدار الفتاوى بحقّهم وحتى بهدر دمهم أو عزلهم بتهمة الردّة.

وما هي الآليات التي تفسّر نجاح "التقليديّين" الظاهر؟ أولاً، لقد أدركوا بسرعة أنه يجب السيطرة على وسائل الإعلام، خصوصاً التلفزيون وبالتالي الإنترنت. فمحطات التلفزة الفضائية التي تغرق المنازل في العالم الإسلاميّ هي في مجملها بين أيدي الإخوان المسلمين (حركة نشأت في مصر عام ١٩٢٨) المتمرّسين بالأساليب الدعائية والديماغوجية، على غرار ذاك الشاب المصري، عمرو خالد، الذي فتن بحسن مظهره وزيّه الأوروبيّ الطراز كأنّه عارض أزياء، قلوب ملايين الشابّات المسلمات عبر العالم. وقد استوحى أسلوب الإنجيليين الأميركيين بما يتكيّف طبعاً مع الذهنية العربية المحافظة والتقليدية. ويمكن القول إنه يحسن الكلام مع النساء فيختار

الكلمات المناسبة ويعطي الأمثلة من الحياة اليومية ويغريهنّ بجاذبيّته وذكائه. لقد وُفِّق في استعمال لغة عقائدية بعد أن تخلّى عن مظهر الفقهاء الملتحين البالي. لكنّ الأمر لا يقتصر على عمرو خالد ودور وسائل الإعلام، بل هناك متحدّثون غيره، خصوصاً من النساء والأساتذة الجامعيين، يدأبون في كلامهم على مناهضة الحضارة الغربية (علماً بأنّهم يستفيدون منها على الصعيد الشخصيّ) ويؤكّدون أنّ كلّ المآسي والمشاكل تجد حلاًّ لها في القرآن. وهذا الفكر التبسيطي مدمّر إذ يسلب الإنسان حسّ المسؤولية (وهو ما يتعارض كلّياً مع الفكر الإسلامي) ويجعله ألعوبة في يد مَنْ يفكّرون عنه.

وليس أنّه يصار إلى القول بما يناقض الحقائق وحسب، بل يجري التشديد بقوّة على بعض المغالطات والأكاذيب من دون أيّ تفسير، كما في مسألة الحجاب مثلاً. فنحن نشهد منذ عشرات السنين انتشاراً واسعاً لارتداء الحجاب بين الصبايا والنساء، والحالة القصوى فيه هي ارتداء البرقع أو النقاب اللذين لا يمتّان للإسلام بأيّ صلة بل هذا موروث عن تقاليد بعض البلدان مثل أفغانستان وباكستان حيث كان دارجاً قبل فترة طويلة من اعتناق تلك الدول الإسلام.

دعا القرآن إلى ارتداء الحجاب في ظروف محدّدة بدقة، وهذا ما أوضحه كاتبان فرنسيان من أصل مصريّ في كتاب لافت بعنوان *Penser l'Islam* [نظرة في الإسلام] نشرته دار Grasset عام ٢٠٠٩: "حصل ذلك في المدينة المنوّرة عندما كانت النساء يضطررن إلى الخروج من المدينة مع هبوط الليل لقضاء بعض حاجاتهنّ فيتعرّضن في معظم الأحيان لمضايقات بعض الأوغاد. وأبلغن أزواجهنّ باستيائهنّ فنقلوه بدورهم إلى النبي، فنزلت عليه عندها الآية القرآنية الداعية حرائر المسلمات إلى وضع شالٍ على رؤوسهن فيسهل التعرّف إليهنّ ويحظين بالاحترام حتى في عتمة الليل". (الأحزاب، ٥٩)

يُفترض بالمرأة التي تدخل مسجداً أو كنيساً أو كنيسة ارتداء ملابس محتشمة، من هنا كان التمنّي بتغطية الشعر الذي يعتبره البعض مبعث إثارة. لكن أن يصل الأمر إلى تلحّف المرأة من رأسها إلى قدميها لتصبح أشبه بـ"شبح أسود" ولا يظهر من جسدها ولو بوصة واحدة، فهذا ينمّ عن تعسّف وتنكّر رديء متعارضين مع روحية الإسلام وسموّه.

ومن المعلوم من جهة أخرى أن الإسلام رفض على الدوام مظاهر التباهي، فالأخلاقيّة الإسلامية تكمن في التكتّم وعفة

النفس وحتى في الصمت. ويوازي الإسلام بين التباهي الديني، مثل إبراز الهوية المسلمة بارتداء ملابس تحجب الجسم بأكمله، وبين النفاق. فنحن نعلم كم يدين الله المنافقين وأمثالهم، أي أولئك الذين يحرّفون رسالته ويستغلونها لأغراض تعصّبية وعقائدية. وليس في القرآن أبداً ما يحلّل الانتحار وقتل الأبرياء. وليس للجهاد أيّ قيمة إلا في خوض حرب دفاعاً عن النفس والبلد. كما أنّ للجهاد معنى آخر يتمثّل في بذل الجهد لفهم حكمة الله وتفسيرها بذكاء.

هذه الصورة الكاريكاتورية عن الإسلام يتطلّب تصحيحها أو محوها وقتاً طويلاً وديمقراطية سياسية. فبدون حرّية تفكير وجرأة وعقلانية، سيزداد أكثر فأكثر خلط الإسلام بما ليس هو عليه ولم يكن عليه قطّ. ولكم من الجرائم ارتكبت باسمه! لكن بمعزل عن هذه العقيدة الإجرامية، عقيدة طالبان وجماعة القاعدة، هنالك مشكلة سياسية فعلية في غالبية الدول المسلمة. فما دامت الديموقراطية الحقيقية لا تسوس الحياة السياسية، فسيستمرّ الأصوليون في استغلال تلك الثغرة لنشر طروحاتهم واستتباع شباب فقدوا الثقة بقادتهم الذين يدبّرون انتخابهم بنسب أصوات تفوق الـ ٩٠ في المئة وغالباً ما يورّثون أولادهم

الحكم. فالمشكلة سياسية إذاً وليست دينية، وإن كان دعاة العلمنة يجدون صعوبة في إسماع صوتهم.

على غرار مؤلفي كتاب *Penser l'Islam* [نظرة في الإسلام] يجب التأكيد أنّه "لا يمكننا إدراك كنه معظم الآيات القرآنية، من دون وضعها في السياق التاريخي الذي أُنزلت فيه" وأن نسأل أنفسنا: "كيف يمكن، بعد مرور أربعة عشر قرن، الادّعاء أنه يجب اتّباع كلّ آيات القرآن كما هي، وحرفياً؟".

لقد تغيّر العالم منذ عهد النبي في كلّ المجالات. والإسلام في جوهره لا يني يحضّ الإنسان على التكيّف مع العالم والسعي إلى المعرفة حيثما توفّرت وعلى التلاقي مع الشعوب الأخرى لأن في فوارقهم ورقة قوة وغنى. ونتوقّع أن يتولّى خطباء آخرون الكلام على المنابر لإخراج الإسلام من هذه الصورة المقيتة والمغلوطة، تلك التي تسيء إليه وتحوّله خطراً على الشعوب الأخرى. ولذلك يجب إعادة النظر في الكتب المدرسية وإرساء الديموقراطية. إنّه المشروع المثاليّ تقريباً.

نعم للاهتداء، لكن إلى الإسلام!

(نُشرت في صحيفة *La Repubblica* في الخامس من تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٨)

يرحّب الإسلام بانضمام أعداد متزايدة من المؤمنين إليه إلّا أنّه لا يسمح بتحوّل المسلم إلى ديانة أخرى. إنّه أمر محرَّم بكلّ بساطة إذ ورد في القرآن أنّ "المرتدّ يُقتل". وكانت هذه العقوبة مطبَّقة في أيّام النبيّ محمّد الذي كان يحارب أعداءه الذين يسعون بشتّى الوسائل إلى إفشال الوحي الذي أُنزل عليه. ومن هؤلاء الأعداء المشركون الذين كان يحاول إقناعهم بعبادة إله واحد، إله الإسلام. وعندما كان أحد المسلمين ينساق للشرك أو يشارك في مؤامرة ضدّ النبي تنزل به عقوبة الموت. ولم يتساهل النبيّ مع المشركين ولا مع المنافقين، وقد خُصّصت في القرآن سورة كاملة لـ"المنافقين" الموصوفين أيضاً بـ"الخونة".

أمّا اليوم فقد اختلف الوضع، ولا يني الإسلام ينتشر في

كلّ العالم وتتضخّم صفوف هذه الديانة التوحيدية المنزلة بمنضوين جدد من كلّ القارّات. وليس لتغيير فرد من أصل مسلم ديانته أن يشكّل أيّ خطر حالياً، فضلاً عن أنّ ذلك لا يطال سوى قلّة قليلة لا تحدث فرقاً.

لكنّ بعض العقليّات لا تفهم الأمر على هذا النحو. أتذكّر من أيّام فتوّتي في فاس، هذه المدينة المحافظة وموئل إسلام وصلها من الجزيرة العربية، أنّ عائلة مغربية ومسلمة أحسَّت بالعار والخيانة لأنّ أحد أبنائها تحوّل إلى الديانة الكاثوليكية. أمّا الشابّ، فتفادياً لانتقام عائلته أولاً وقبل أيّ مجموعة أو جمعية إسلامية، فقد سافر لاجئاً إلى فرنسا حيث صار يُعرف بالأب عبد الجليل. ولم يحاول أحد لوم عائلته التي نظّمت مراسم دفنٍ رمزية تعبيراً عن رفضها الشديد للأمر.

وإذ صدمني ذلك أُفهِمت أنّ مَن يولد مسلماً يبقى مسلماً طول حياته ويموت على الإسلام. الأمر إذاً بهذه البساطة، إنّها ديانة لا تتقبّل الارتداد عنها ولا النقد. فالعقيدة عقيدة نهائية، وهذا ما يؤدّي بمعتنقي الإسلام حديثاً بكل سهولة إلى التعصّب وعدم التسامح وإلى التزمّت في عيش مبادئهم.

ما مِن ديانة عموماً تتقبَّل خروج أحد أبنائها منها، ومن

المستحيل اليوم المجاهرة بالإلحاد في معظم الدول الإسلامية، وحتى العلمانية قد لا يمكن الكلام عليها مع أنّها لا تنفي الدين أو ترفضه، بل هي تدعو إلى فصل الدين عن الدولة وحسب. ومن الأجدى لمن يخرج عن الإسلام أو من لا يؤمن بالله أن يبقى متكتّماً. وقد سبق للديانة الكاثوليكية أن مرّت بهذا الوضع الذي أدّى إلى إشعال حروب وإحراق من تخلّوا عن الإيمان أحياءً وإقامة محاكم التفتيش على مدى عقود.

نجد بين المتأسلمين عدداً كبيراً من الرجال الذين فعلوا ذلك كي يتمكنوا من الزواج بامرأة مسلمة. فهل أقدموا على ذلك عن صدق إيمان أم كمجرّد وسيلة تكتيكية؟ ويدخل آخرون الإسلام عن اقتناع عميق، فقد كان لي صديق فرنسي من أصل بولوني أدار لعشرات السنوات دار Seuil للنشر، ومؤسِّسوها من الكاثوليك، وكان قد اعتنق الإسلام في الرابعة عشرة من عمره لأنّه وجد في هذه الديانة روحانية كان يطلبها. وقد أصبح من كبار المتخصّصين في نتاج الشاعر الصوفي ابن عربي. فهذه التحوّلات تبقى طيّ الكتمان ولا يؤتى على ذكرها، لكنّها تجري فعلاً من دون أيّ استفزاز. فالإيمان يُعاش بصمت لا وسط الضجيج والاستعراض.

الجهاد

(نُشرت في صحيفة *La Repubblica* في ١٥ آذار/مارس عام ٢٠٠٥)

كلمة "جهاد" مشتقّة من فعل "اجتهد" الذي يعني "بذل الجهد" للنجاح مثلاً في عمل ما أو بحث أو علم أو دراسات. وقد أتى القرآن على ذكر "الجهاد" في غير موضع بمعنى "الصراع"، لكنّه صراع من نوع خاص لأن المقصود به هو الجهد الذي يجب أن يبذله المؤمن على نفسه بغية إصلاح نفسه وممارسة إيمانه بالطريقة الفضلى سيراً على صراط الله المستقيم ولتحسين وضعه. لقد بيّن النبي محمّد أنّ المجاهد الحقيقي هو الذي يجاهد نفسه، أي الذي يعمل بما تمليه الأخلاق والفضيلة تحقيقاً للقيم الأساسية التي دعا إليها الإسلام. فهناك "الجهاد الأكبر" وهو الذي يخوضه الإنسان ضدّ رذائله وعيوبه، و"الجهاد الأصغر" وهو الذي يقضي

بمحاربة أعداء الإسلام، أي أولئك الذين استمرّوا، في زمن نزول الوحي، في التشكيك بالرسالة السماوية ودأبوا خصوصاً على عبادة الأصنام أو محاربة شخص الرسول بكلّ الوسائل المتاحة. فالآية ٣٦ من سورة التوبة تقول: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

ثمّ شيئاً فشيئاً زالت هذه التفاصيل الدقيقة ولم يبقَ منها سوى هذا المفهوم للجهاد المقصود به القتال. ويُقال في هذه الحرب باسم الله بأنّها مقدّسة. ومن جهة أخرى يحرَّم فيها هدر دم أيّ شخص مسلم، إذ إن المقصود بها هم معادو الإسلام صراحة. لكن يجب تحديد من هو عدوّ هذه الديانة، أهو مَن له قناعات مختلفة أم من كان على دين آخر أم الذي يجادل في الإيمان الإسلامي أم الذي يهاجم المسلم ويضطرّه إلى الدفاع عن نفسه؟ وهناك ناحية أساسية يجب التذكير بها، وهي أنّ الإسلام يفرض على المؤمن الاعتراف بأنبياء الديانتين التوحيديّتين الأخريَيْن واحترامهم. وقد أبرز القرآن مميّزات المسيح إذ اعتبره نبيّاً ورسولاً مميّزاً من الله، وهو موضع احترام وتقدير، وعلى المسلم إجلاله كما يجلّ إبراهيم وموسى ومحمّداً. ليس أعداء الإسلام إذاً أبناء الديانات الأخرى، بل هم من يعادون الديانات

التوحيديّة الثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية على حدٍّ سواء.

ظلّ الجهاد لزمن طويل دفاعياً، ولم يتحوّل هجومياً إلّا في مرحلة متأخّرة من التاريخ. ففي الحملات الصليبية اضطرّ المسلمون إلى الدفاع عن أنفسهم لأنّ البابا أوربانوس الثاني هو الذي بادر إلى إعلان الحرب عام ١٠٩٦. فدُعي المسلمون في كلّ أنحاء العالم إلى الجهاد.

ومنذ تلك الحقبة توسَّع مفهوم الجهاد ليشمل كلّ الحروب التي تُشنّ في أرض الإسلام، ومنها أشكال النضال ضدّ الاحتلال الاستعماري التي خيضت طبعاً لتحرير البلاد باسم الكرامة، لكن أيضاً لنصرة الإسلام الذي أذلَّه الاستعمار المسيحي. وحتّى اليوم ما يزال هناك من يخلط بين الغرب والديانة المسيحية، من دون تمييز بين الشعوب ومعتقداتها.

لقد أعطى القرآن الأفضلية للدفاع على الهجوم، وبكلّ بساطة لأنّ الإسلام يطرح نفسه على أنّه "خضوع للسلام" ورأى أنّ كلّ قتال فتّاك يولّد المظالم ويثير الفتنة، وأنّ "دار الإسلام" هي "دار الصلح". وبناءً على ذلك يجب أن يكون الكفاح روحانياً لتعزيز حسنات الفلسفة الإسلامية. ومجاهدة النفس هذه نجدها عند الصوفيين الذين جعلوا من محبّة الله

اهتمامهم الوحيد. كما أنّ كبار متصوّفة الإسلام هم أيضاً من كبار شعرائه، مثل الحلّاج وابن عربي وجلال الدين الرومي.

ما أبعدنا اليوم عن هذا الفكر السلمي والروحانيّ. فالحروب والمظالم والمذلات لا توفّر حتى الشعوب العربية والمسلمة في الشرق الأوسط. ففي كلّ يوم يُقتل الأبرياء، سواء في العراق أو في فلسطين، وتُفجّر المنازل وتُفجَع العائلات وتغرق في الحداد. وفي فلسطين أولاد يُحرمون طفولتهم ويعيشون في ظروف لاإنسانية ويكبرون في ظلّ حالات الطوارئ والحرب. إنّ أطفال المخيّمات هؤلاء الذين لم يعرفوا من الحياة سوى الاحتلال والقنابل ودفن المقاومين، هم الذين وجدوا في الجهاد وسيلة لتأكيد رغبتهم في أن يحظوا بالاعتراف بوجودهم وفي العيش في دولة حرّة ومستقلة.

إنّ الذين يستغلّون الإسلام لتجنيد شباب في المقاومة يستعملون كلاماً مغرياً ببساطته وبالوعود التي تعد "الشهيد في سبيل الله" بوضعٍ مميّز. ففي فلسطين تتميّز منظمة "الجهاد الإسلامي" المقاومة للاحتلال الإسرائيلي عن حركة الكفاح والمقاومة "فتح" العلمانية المنحى.

إنّ قسماً كبيراً من القادة الفلسطينيين يشجبون تمجيد

الشهيد، أي من يضحّي بحياته باسم الإسلام في سبيل القضيّة. فعندما يسقط أحد المناضلين برصاص المحتلّ يُدفن كشهيد بإقرار الجميع حتى إنّه لا يُقال إنّه مات بل "استُشهد". لكن عندما يُعدّ بعضّ الشبان ليتحوّلوا قنابل بشرية جاهزة للانفجار في مطعم أو باص لقتل المدنيين، فليس هذا من الجهاد في شيء، بمفهومه الأوّل، وليس من قيم الإسلام.

إنّ الانتحار محرَّم تحريماً قاطعاً في الإسلام، وعقاب صاحبه الجحيم الأبدي، فمفهوم الانتحاري (الكاميكاز) دخيل على الثقافة العربية والإسلاميّة. وكان آية الله الخميني أوّل من دفع الفتيان إلى الصفوف الأولى في خلال الحرب بين إيران والعراق، قائلاً لهم إنّهم سيموتون شهداء ويدخلون الجنّة حيث سيكافئهم الله على ما استحقّوه. وفي ما بعد اعتمدت بعض الحركات الإسلامية الأخرى، في لبنان وفلسطين، الحجج ذاتها. كذلك لجأ بعض الشيشانيّين أيضاً إلى العمليات الانتحاريّة، وتحت راية الجهاد جرى القتال في كلّ من البوسنة والجزائر وكشمير وألبانيا وكردستان والفيليبين.

الغريب في الأمر هو تبرير الموت هذا على حساب غريزة البقاء، ما يشكّل سلاحاً جديداً لم يعهده الغرب. فكيف تمكن

مواجهة مَنْ تغلّب على الخوف من الموت واستبدله برغبة جامحة في الموت لكي يقتل الآخرين؟

وكيف بلغت الأمور هذا الحدّ؟ لا يمكن فهم هذه الظاهرة من دون العودة إلى حرب أفغانستان ضدّ الاحتلال السوفياتيّ، إذ إنّ انبعاث الجهاد بدأ على الأرض الأفغانية، حيث غضّ الأميركيون النظر عنه في سياق تصدّيهم للسوفيات، بل إنهم شجّعوا عليه "المجاهدين" وموّلوهم، ومنهم المدعوّ أسامة بن لادن.

وفي تسعينيات القرن الماضي راح الظواهري وبن لادن يدعوان إلى الجهاد لمحاربة الغرب وتوحيد المسلمين في العالم حول "الأمّة الإسلامية" الشهيرة. ويذكّر جيل كيبيل في كتابه الأخير *Fitna* فتنة (منشورات Gallimard، ٢٠٠٤) بأن "هدفهم كان خوض حرب داخل الإسلام هدفها الأساسيّ قبل كلّ شيء فرض سيطرة المناضلين الجهاديين على عقول إخوتهم في الدين بغية التوصّل عبر الكفاح المسلَّح إلى إقامة "دولة إسلامية" في كلّ مكان. إنّ أبناء الإسلام مدعوّون إلى التعويض عن حالات التقصير وغيرها من مواقف أهاليهم وأجدادهم الانهزامية. كانت الكلمة العربية والكلمة الإسلامية والهويّة العربية المسلمة بحاجة إلى فرض نفسها والثأر لها، إذ

لم يعد من الممكن التساهل في مسألة إذلال المواطن العربي، سواء في قلب الدول العربية حيث الحرّيات مفقودة أو في الأراضي المحتلة، و"على الأمّة الإسلامية أن تردّ على ذلك".

وقد أوضح الظواهري أنه يجب "الاستعداد لمعركة غير محصورة بمنطقة محدّدة، بل تستهدف العدوّ الداخليّ المرتدّ بقدر استهدافها العدوّ اليهودي–الصليبي الخارجي". ويتمثّل العدو الداخلي بالأنظمة العربية التي لا تطبّق الشريعة بطريقة منهجية، أي عملياً، في مجمل العالم العربي. وتُعدّ المملكة العربية السعودية حالة متميّزة، فلأنّ الأسرة الحاكمة تُعدّ حامية الأماكن المقدسة تتعرّض سلطتها للانتقاد لأسباب سياسية أكثر منها دينية، فلم تكن في منأى عن الإرهاب علماً بأنّها الدولة التي أعدّت معلّمين مهمّتهم اتّباع المذهب الإسلامي الوهّابي. كما أوضح الظواهري أنّ من حسنات العمليات الاستشهادية (الانتحاريّة) أنّها توقع خسائر في صفوف العدوّ مقابل حياة إنسانية واحدة.

وفي مرحلة أولى ضرب الإرهاب، باسم هذا "التطهير الإسلامي" الدول العربية كمصر والسودان وخصوصاً الجزائر حيث أوقعت الحرب الأهلية أكثر من ١٠٠ ألف قتيل، أمّا الهجومات على الغرب فلم تبدأ إلّا مع اعتداءات ١١ أيلول/

سبتمبر عام ٢٠٠١. والجهاد هو وسيلة خوض هذا النضال. وتعيش أوروبا داخليّاً على فوهة بركان، فـ"المجاهدون" ينشطون فيها في انتظار الإشارة لإطلاق العمليات، كما حصل في مدريد، في ١١ آذار/مارس عام ٢٠٠٤، حيث أوقعت الهجومات الانتحارية في قطارات الضواحي ١٩١ قتيلاً و ١٤٠٠ جريح. وقد تبنّت كتائب أبو حفص المصري التابعة لتنظيم القاعدة هذه الاعتداءات.

يتّضح إذاً أنّ منظّري الجهاد لا يحترمون الكتب المقدّسة ويعملون للوصول إلى أهداف تضمن لهم الهيمنة على العالم الإسلامي عبر إنشاء "جمهوريات إسلامية" في كلّ مكان.

فما العمل إذاً من أجل وضع حدّ لدوّامة العنف هذه؟ بإمكان أوروبا التي يعيش ملايين المسلمين على أراضيها الشروع في حوار مع هذه الشريحة من سكّانها والعمل على إشعار هؤلاء الأوروبيين الجدد بأنّهم مقيمون في ديارهم ومنصهرون فيه لا معزولون، وبأنّهم معنيّون بمصير الكيان الأوروبي حيث يحظى الإسلام، كدين وثقافة، بموقعه الشرعيّ. وهذا الإسلام المطمئن الذي يمثّل الغالبية هو الذي يمكنه أن يُفشل محاولات زعزعة الاستقرار والإرهاب. وفي موازاة ذلك يجب العمل

على إنصاف الفلسطينيين، وعلى تحقيق سلام عادل ومستدام بين الشعبين الفلسطيني والإسرائيلي. ويوم يتحقّق سلام فعليّ في فلسطين سيجد الداعون إلى الجهاد أنفسهم محرَجين. وكذلك يوم يتمكّن الزعماء الأوروبّيون من إقناع المسلمين باستعدادهم الفعلي لاحتضانهم والعيش معهم سيُهمّش دعاة الجهاد ويسقط دورهم، لأنّ الجهاد يجد أرضاً خصبة لتجنيد مقاتليه حيث يسود اليأس والظلم والإذلال والتجاهل.

وعلى أوروبا، إذا أرادت الانتصار على موجة الجهاد، أن تتعهّد صراحة برعاية مواطنيها المسلمين، وهذه مهمة طويلة وشاقّة لكنّها إحدى الوسائل التي تساعد على إفشال أولئك الذين يسعَون علناً إلى زرع الموت والرعب في العالم. لكن للأسف، إن كانت إعادة انتخاب جورج دبليو بوش قد شكّلت خبراً سيّئاً في ما خصّ الحرّيات والسلام، فإنّها تعزّز موقف المتطرّفين والإرهابيين، إذ إنّ السياسة الأميركية الحالية في العراق (التي أوقعت أكثر من ١٠٠ ألف ضحيّة) قد استفزَّت المزيد من الدعوات الإرهابية.

الشرق–الغرب: صدام الجهالات

(محاضرة ألقيت في مؤتمر "الإسلام والعالم"، نيويورك، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٩)

أودّ البدء بذكر واقعة تخطر لي كلما جرى الحديث عن هذه المواجهة بين الشرق والغرب خصوصاً بعد ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

في آذار/مارس عام ٢٠٠٣ تلقيت دعوة من جامعة برينستون العريقة في الولايات المتحدة لإلقاء سلسلة محاضرات. استقللت الطائرة إلى باريس وأنا أعرف أنّ شركة الطيران ملزمة بتقديم لائحة بأسماء الركّاب الذين هم على وشك دخول الأراضي الأميركية. وعلى غرار الجميع ملأت البطاقات التي وُزِّعت علينا والتي تقدّم لشرطة الحدود حيث قدّمت جواز سفري الفرنسي. وما إن رأى الشرطي الأميركي اسماً عربيّاً حتى بدأ ينقر على لوحة مفاتيح حاسوبه واستغرق ذلك خمس دقائق،

ثمّ سلّم أوراقي لشرطي آخر وطلب منّي أن أتبعه إلى مكتب يقع في عمق المطار. هناك أجلسوني في قاعة لاحظت فيها وجود عرب آخرين. انتابني القلق لكن لم أقل شيئاً. بقيت منتظراً، عالماً بأنّني مشبوه، لكن بأيّ تهمة؟ ما الذي فعلته؟ قلت في نفسي قد أكون ارتكبت جنحة ما امّحت من ذاكرتي. انتظرت وأنا أفكر في شخصية "ك." في رواية فرانس كافكا **المحاكمة**. أحياناً، يكفي أمر تافه ليوقعك في ما ليس في الحسبان، وليس على وجه الشرطي المكلّف بملفّي أيّ تعبير. نظرت إليه ثمّ خفضت عينيّ. بدأت أخاف وقلت في نفسي: "ماذا لو خلط بيني وبين شخص آخر يحمل الاسم نفسه، شخص قد يكون مطلوباً؟". وإذا أخذوا وقتهم في التحقّق فقد أجد نفسي في غوانتانامو. ازددت توتّراً وبقيت منتظراً وأنا لا أجرؤ على الاستفسار عمّا يجري. وقد نُبِّهت إلى أنّه لا ينبغي أبداً الاحتجاج في هذه الحالات.

بعد أربعين دقيقة استدعاني الشرطي وطرح عليّ سلسلة من الأسئلة. وبما أنّ لغتي الإنكليزية ركيكة أجبت بالفرنسية ثمّ بإنكليزية متلعثمة. وحاول بأسئلته أن يوقع بي: "من هو أمين؟" "ابني." "ما هو تاريخ ولادته؟"، وهنا خانتني الذاكرة، نسيت. ضعت بين تاريخ ولادته وتاريخ ولادة أحد أبنائي الآخرين.

أريته الدعوة من برينستون لكنّه لم يكترث للأمر وتابع النقر على حاسوبه. في تلك اللحظة تذكّرت أنني كتبت مقالاً عن الحرب في العراق وطالبت فيه بمحاكمة بوش أمام محكمة الجزاء الدولية بتهمة قتل الأبرياء. قلت في نفسي: "لهذا السبب توقفني الشرطة". أعاد لي الشرطي جواز سفري بعد وقفة قصيرة في الاستجواب تحدّث فيها إلى أحد زملائه. خرجت من المطار حيث بقيت حقيبتي وحدها على السجّادة المتحرّكة، فسائر الركّاب، الأوروبيّون، لم يخضعوا لاستجواب.

هذا هو النوع من المواقف الذي يخشاه العرب عندما يريدون السفر. فهم، ولو أبرياء، يحسّون أنّ في سمات وجوههم ما يجعلهم موضع شبهة. وهذا هو نصيبنا من الشرق في هذا العصر المتميّز بالفوضى واللبس والعنف الشديد.

إنّ بين الشرق والغرب الكثير من سوء التفاهم، وهو ما يدعونا إلى البدء بتفكيك الأحكام المسبقة والتصوّرات المنمَّطة والأفكار الجاهزة والتعميمات، وتحديد دلالات الكلمات والأمور بدقّة.

ما المقصود بالكلام عند إثارة موضوع هذين القطبين؟ إن كان من السهل تحديد معالم الغرب، فإنّ الشرق هو بالأحرى

عبارة عن فسيفساء من الدول والشعوب التي تعتبر واقعة جغرافياً أحياناً في آسيا، وأحياناً في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، أو حتى في المغرب. والمغرِب تعني لغوياً مكان غروب الشمس، أي الغرب، ومع ذلك يُصنّف المشرق والمغرب في الفئة نفسها.

لنبقَ ضمن محيط العالم العربي الذي يشمل دول المغرب العربي الخمس والدولة العربية السبع عشرة الأخرى. ونحن نأخذها معاً لأنها تتشارك ديانة واحدة ولغة واحدة. لكن إذا ما نظرنا فيها عن كثب، نكتشف أنّ اللغة العربية المشتركة بينها هي لغة فصحى أدبية لا يتكلمها سوى النخب. إنّها لغة الكتب والتاريخ، أمّا الشعوب فهي تتكلّم بلهجات متفرّعة من تلك اللغة. لكن إن كان من السهل على مفكّر مصري وآخر مغربي التواصل بسهولة لأنّهما يستعملان لغة القرآن، فإنّ من الصعب على مزارعَيْن أو عاملَيْن من بلدين عربيّين أن يفهم أحدهما الآخر. أقصى ما يمكنهما هو تبادل بضع كلمات قريبة من اللغة الفصحى. وتفسِّر هذه المشكلة تأخر ظهور فنّ الرواية نسبياً في المنطقة العربية. فأول رواية عربية، **زينب**، صدرت عام ١٩١٤ بشكل متسلسل في إحدى الصحف المصرية، وقد أعطاها مؤلفها محمد هيكل المتأثر بغوستاف فلوبير، عنواناً فرعياً

هو "أخبار امرأة ريفية". وإذ اعتُبرت الرواية في تلك الحقبة نوعاً أدبياً غير أخلاقي فقد اتُّهم الكاتب بالكفر والخيانة. أمّا تأخّر ظهور الفنّ الروائي فكان لسببين، أولهما أنّ المجتمع العربيّ لم يكن يعترف بالفرد ويولي الأهمّية للعشيرة والعائلة، والسبب الثاني هو أنّه لم يكن من الواقعي والمقبول إقامة حوار بين شخصيتين روائيتين من الشعب بالعربية الفصحى. لم يتجرَّأ أحد على اعتماد اللهجات المحلية كي لا يُحرم الوصول إلى قرّاء عرب آخرين محتملين في العالم العربي. ومع ذلك هناك من شكّل استثناءً، ففي عام ١٩٣٣ نشر حسين فوزي، الطبيب والمستكشف البحري المصري، باللغة العربية المحكية في مصر، حكاية مغامرة بعثة استكشافيّة في جولتها على متن مركب شراعي حول الكرة الأرضية على مستوى خطّ الاستواء.

القاسم المشترك الثاني بين تلك الدول على اختلافها هو الإسلام، علماً بأنّ أكثر من ١٠ في المئة من المسلمين العرب هم من المذهب الشيعي، والباقي من المذهب السنّي. كما أنّ هناك أقليّات مسيحية في كلّ من مصر ولبنان وسوريا والسودان والعراق. وحدها المغرب قاومت محاولات نشر المسيحية.

ليس العالم العربيّ إذاً كياناً موحّداً متماسكاً ومتجانساً،

وهو كما وصفه المستشرق جاك بيرك "متشابه ومختلف". فقبل القرن التاسع، لم يكن المغرب العربي عربياً ولا مسلماً، بل كان سكّانه من البرابرة الذين دخلوا الإسلام لكنّهم احتفظوا بلغاتهم وتقاليدهم. وقد شكّل الإسلام لفترة طويلة لبنة ثقافية بين مختلف تلك البلدان. وقد حاول الاستعمار الفرنسي، عام ١٩٣٢، تقسيم المغاربة عرباً وبرابرة في سعيه إلى وضع تشريع مختلف، فرفض جميع المغاربة هذا المشروع وعبّروا عن اعتراضهم بصوت واحد: "كلنا مغاربة وكلنا مسلمون". وهذا ما عُرف بـ"المرسوم البربري" الذي سحبته فرنسا.

وكان الإسلام، قبل زمن طويل من قيام الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨، قد تحوّل عقيدة سياسية مع ظهور حركة الإخوان المسلمين في مصر عام ١٩٢٨، التي رفعت راية الهويّة والحضارة الإسلاميّتين في وجه الاستعمار والحركة القومية العلمانية في أوساط الشباب المصري.

ومن أجل فهم الموقف الحالي "الرافض للغرب" يجب العودة إلى الأسباب الأساسية المتمثّلة بحالات الإذلال والإحباط التي عاشتها الشعوب العربية. فمنذ قرون يقيم الغرب علاقات مضطربة جدّاً مع هذا الشرق القريب جداً والبعيد جداً

في آن واحد. فمن الاستعمار إلى سلب الفلسطينيين أراضيهم عام ١٩٤٨ جراحات كاوية في ذاكرة العالم العربي الذي تولاه على الدوام حكّام غير منتخبين ديمقراطياً واعتمدوا سياسات تخدم مصالح هذا الغرب الذي ساعدهم ودعمهم. وخير مثال فاضح على ذلك هو حالة صدّام حسين. فلولا دعم الأوروبيين والأميركيين لما شنّ الحرب على إيران، ولولا الأسلحة التي باعتها منه فرنسا وألمانيا على وجه الخصوص، لما تمكّن من ممارسة ديكتاتورية دموية على شعبه. فـ"أصدقاؤه" الأوروبيون غضّوا الطرف يوم أحرق قرية حلبجة الكردية بالغاز. مات الأكراد المساكين وهم نيام تحت تأثير الغازات التي اشتراها العراقيون من الألمان والتي قذفتها طائرات فرنسية.

ولأنّ العراق صاحب احتياط نفطيّ ضخم لم يكن للأخلاقيات السياسية حقّ النظر في ما يفعله صدام، فلطالما تقدّمت المصالح على القيم الإنسانية، وهذا ما لا تنساه الشعوب العربية التي سبق أن عانت من هذه الأنظمة الديكتاتورية وتلك التي ما تزال تعاني.

ولذلك فإنّ نظرة العالم العربي إلى هذا الغرب، المتنوّع والمتشابه هو أيضاً، هي نظرة لوم واستياء وانجذاب غامض

ورفض. وقد مُنيت النخب بالخيبة، فكم من مرّة سمعناها تلوم فرنسا، "بلد حقوق الإنسان"، على تقديمها في سياساتها الخارجية مصلحة الدولة على حقوق الإنسان.

وبعد الحروب بين العرب وإسرائيل على الأخصّ، في أعوام ١٩٦٧ و١٩٧٣ و١٩٨٢ وبعد مختلف المواجهات غير المتكافئة بالأسلحة بين الشعب الفلسطيني والجيش الإسرائيلي، تزداد الهوّة بين الشرق والغرب الذي يُعدّ صديق دولة إسرائيل وحاميها. وغالباً ما تكون العقليات ذات وجهات نظر ثنائية ومانوية (صراع النور والظلام)، فلا تريد الدخول في دقائق التحليلات الجغرافية السياسية.

نجد هذه النظرة المانوية منتشرة على نطاق واسع في المحطات الفضائية العربية الجديدة التي تحظى بنسبة مشاهدة عالية جداً. فقناة الجزيرة التي تبثّ من الدوحة، عاصمة قطر، تؤدّي دوراً كبيراً جداً في تكوين هذه العقليات وإعدادها، فهي مثلاً تنقل مباشرة للمشاهدين كيف يتعرّض إخوانهم الفلسطينيون والعراقيون لممارسات الاحتلال الوحشية، فيما تبقى الكاميرا الغربية متحفّظة أحياناً فلا تنشر صوراً مروّعة. إنّ كاميرا هذه القناة لا تراعي المشاعر وتنقل ما لا تُحتمل مشاهدته

وتراهن في البرامج الحوارية على السجالات العدائية، وتستنطق الشهود بفعالية مخيفة وتكرّر بثّ المشاهد الصادمة. ومحطة الجزيرة هي من قلب مفهوم نظام الإعلام ووسائل التواصل في العالم العربي، وبعدها ظهرت قنوات أخرى تقلّدها وتنافسها. ولذلك أحسّ الأميركيون بالحاجة إلى إنشاء محطة خاصّة بهم على غرار "الجزيرة" فكانت قناة "الحرّة" التي تعتمد التقنيّات نفسها في سرعة نقل الخبر لكن يبقى لها تحليلاتها الخاصّة للوضع في العراق.

وسط هذه الفورة الإعلامية وبفعل هذه الجراحات التاريخية نما الإرهاب الذي تبقى أهدافه الخفيّة مجهولة فيما أهدافه السياسية واضحة وهي زعزعة الاستقرار في الدول العربية التي تسلك طريق الديموقراطية والتي تربطها بالغرب علاقات اقتصادية وسياسية أو دفاعية. فبعدما اجتاح صدام حسين الكويت باتت دول الخليج العربيّ بحاجة إلى الحماية العسكرية الأميركية واضطرّت إلى التحالف مع هذه القوة العظمى لضمان بقائها.

أمّا الهدف الآخر للإرهاب فهو زرع الرعب في بعض الدول الغربية لحملها على تغيير سياستها في العالم العربي. لكنّ الهدف الوحيد الذي حقّقه الإرهابيون بهذه النزعة التدميرية هو

إلحاق الأذى بالمسلمين في أنحاء العالم بقتلهم أبرياء وبإثارتهم الشبهات العامّة في تحرّكات كلّ مواطن عربي.

كان الإرهاب دوماً سلاح اليائسين المغضَبين، لكنّ عناصر القاعدة ليسوا يائسين، بل هم عملاء لا تُعرف ما هي دوافعهم الخفيّة. إنّهم يتمتّعون بالشقاء الذي يتسبّبون به، كما أنهم منظَّمون تنظيماً جيداً ويمتلكون إمكانيات مادّية وعلاقات تواطؤ مهمّة، وحتى الآن لم يتمكن أحد من اكتشاف دوافع الإرهاب الدولي المعقّدة والغامضة، ذاك الذي ضرب نيويورك والدار البيضاء ومدريد ولندن، وذاك الذي ينفّذ تفجيرات يومية في العراق واعتداءات متفرّقة في دول الخليج.

في ظلّ هذه الظروف قدّم صموئيل هانتنغتون إلى الأميركيين طرحاً جديداً مختلفاً، لكنّه تبسيطي وخاطئ، لتعزيز فكرتهم عن أنفسهم وجعلهم يتصرّفون في العالم خارج كلّ مساءلة. فما الذي يقول به صموئيل هانتنغتون؟ أورد هنا بعض ما قاله:

> طرحي هو التالي: في هذا العالم الجديد لن يكون المصدر الأساسي والأول للنزاع عقائدياً ولا اقتصادياً. فالانقسامات الكبرى التي ستشهدها البشرية، والمبعث الأساسي للنزاع، ستكون حضارية. ستبقى "الدول–الأمم Etats–nations"

هي الفاعليات الأشدّ نفوذاً على الساحة الدولية، إلا أنّ المواجهة في النزاعات المحورية في السياسة العالمية ستقع بين أمم ومجموعات تنتمي إلى حضارات مختلفة. سيتحكّم صدام الحضارات بالسياسة على المستوى العالميّ، وخطوط التباعد بين الحضارات هي التي ستشكل خطوط التماس في المعارك العتيدة.

كتب الراحل إدوارد سعيد في مقال نُشر في صحيفة *Le Monde* في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠١:

> إن مقولة تصادم الحضارات هي مثل مقولة "حرب العوالم"، ذريعة تصلح لتعزيز روح الاعتزاز الدفاعيّة أكثر منها للتوصّل إلى فهم نقديّ لهذا التداخل المذهل الذي يشهده عصرنا هذا.

وفي الواقع إنّ لمن باب التوهّم إقامة هذا التعارض بين كيانين متراكبين إلى هذه درجة كما هي حال الغرب والشرق، وذلك بكل بساطة لأنّ للدول الغربية إرثاً فلسفيّاً وعلميّاً وصل إليها عبر العالم العربي والمسلم. إنّ تجاهل هذا الأمر، كما فعل هانتنغتون، هو طريقة لتضليل القرّاء. ويذكّر إدوار سعيد بأنّ

"الغرب استقى من الإسلام الإنسانوية والعلوم والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم التأريخ التي تطعَّمت بها مرحلة ما بين شارلمان والعصور الكلاسيكية القديمة. فللإسلام منذ بداياته موقعه في صلب هذه الأمور كما أقرّ به دانتي نفسه، وهو عدوّ الإسلام الكبير، عندما أنزل النبي في قلب جحيمه".

في قلب بولونيا الوسطى نرى في كنيسة سان بيترونيو، إذا أنعمنا النظر، لوحة جدارية ضخمة للفنان جيوفاني دا مودينا تعود إلى عام ١٤١٥ وهي تمثّل النبي محمّداً بين يدي الشيطان الذي يجرّه نحو الجحيم.

إنّ لكراهية اليوم جذورها في الماضي السحيق. وكلّ ما يفعله هانتنغتون هو أنّه يوقظ تلك الأحقاد الدفينة بهدف ضمان تفوّق الغرب والدفاع عنه بتدميره بلاد الإسلام.

إنّ لَمِن السهل اعتبار دول الشرق الأوسط مقتصرة على الإرهاب فقط أو على دين معيَّن وحسب. صحيح أنّ هناك تناقضات صريحة بين الشرق والغرب على صعيد أنماط الحياة والخيارات السياسية، لكن يبقى صدام الحضارات شعاراً أكثر منه حقيقة لأنّ الحضارات متحرّكة وتنتقل وتتداخل في ما بينها. فهي لا تتقدّم ككتل مستقلّة بذاتها لا تماثل أبداً بينها. أمّا تصادم

الجهالات فهو في المقابل حقيقة منتشرة على نطاق واسع، وهو الأرضية التي ينشط فيها الإرهاب ويجنّد ويغسل الأدمغة ويتصرّف من دون أيّ عقاب لكونه همَجيّاً ومقنّعاً، فيحرِّف الدين بسهولة مقلقة ناجحاً في استبدال غريزة البقاء بإغراء القتل أو الانتحار.

وإذا ما أراد الغرب مكافحة الإرهاب فعليه أن يكون الأوّل في تولّي حلّ القضايا العادلة، وأن يعمل على الترويج صراحة لقيم الديموقراطية والحرّية بنزاهة ومن دون خلفيّات، على أن تأتي مصالحه في الدرجة الثانية. لقد تبيّن أنّ لمشروع تصدير الديموقراطية إلى الدول العربية (وهو ما سُمِّي "الجراحة الديموقراطية") حدوده ومخاطره. فالديموقراطية لا تُفرض باحتلال بلد وتدمير بُناه وزرع الفوضى التي تتحوّل حروباً أهلية. ليست الديموقراطية تقنيّة أو ذريعة أو نوعاً من حبّة دواء تُذوّب في الماء، بل هي ثقافة ورؤية إلى العالم وطريقة لتعلّم العيش مع الآخرين. إنّها ثقافة تستغرق وقتاً لكي يتقبّلها الشعب ويتشبّع بها وتربية يومية تبدأ في المدرسة. وهي لا تقتصر على ورقة الانتخاب (ليس الانتخاب إلّا أحد مظاهرها العمليّة) ولا يُعبَّر عنها بقرار يُتّخذ في مكتب مكتظّ بالعسكريين.

ومن المؤكد أنّه إذا ما تحقّقت العدالة للشعب الفلسطيني

وتأمّن السلام للشعبين ومُنح كلاهما دولة، يفقد الإرهاب الكثير من قدرته على الأذى. وبعدها يجب تسوية المسألة العراقية بأسرع ما يمكن وذلك بأن يُطلب من الرئيس بوش التعويض عن الأضرار الجسيمة التي ألحقتها سياسته بهذا البلد.

إنّ هذا الشرق العربي يعرف الغرب ثقافياً وسياسياً، والعكس صحيح مبدئياً. لكنّ قضيّة رسوم النبيّ محمّد الكاريكاتورية، على تفاهتها، بيّنت عمق الهوّة بين الغرب والعالم الإسلامي من حيث عدم فهم أحدهما الآخر وجهله إيّاه. فليس للغربيين فكرة عمّا قد يؤذي المسلم في صميمه، فيما يخلط المسلمون بين العمل الصحافي وممارسة الحكم ولا يمكنهم أن يتصوّروا أنّ حرّية التعبير قيمة مقدّسة. فمعرفة الواحد الآخر تعني الاعتراف المتبادل وتقبّله واحترامه. ولنبدأ بالثقافة على أن تتبعها السياسة. ففي ثنايا الشرق العربي وتاريخه وعلومه الكثير من الغرب حتّى ليودّ بقوّة ألّا تنظر إليه الدول الأوروبية نظرة حذر وريبة، أو انطلاقاً من مصالح اقتصادية واستراتيجية، بل بكلّ بساطة نظرة توق إلى التعرّف إلى ثقافته وحضارته.

حالات جهل متبادلة

(محاضرة أُلقيت في لانزاروت في جزر الكاناري، في ٢٦ أيار/مايو عام ٢٠٠٦)

لفت ابن خلدون إلى أنّ "من ليست العربية لغته الأم، يجد صعوبة أكبر في درس العلوم" والتعلّم. وكان يتحدّث عن حقبة لم يكن من الممكن فيها فصل عالم الثقافة عن اللغة العربية. لقد بات عصر الأنوار اليوم بعيداً جداً، ولم تعد اللغة العربية، بالرغم من غناها الاستثنائي وجمالها، تستهوي الشعوب غير العربية.

كذلك أشار ابن خلدون، بعد وصفه وتحليله وضع العالم العربيّ في تلك الحقبة، إلى أنّ "حضارة العمران الحضري تمثل أعلى درجات الحضارة التي يمكن لشعب بلوغها. إنّها ذروة الارتقاء في حياة هذا الشعب والمؤشِّر المنذر بزواله (...). إذّاك تبدأ الأمة بالتقهقر والتحلّل وبالتداعي...".

لم يكن ابن خلدون مؤرّخاً كبيراً ورائداً لعلم الاجتماع وحسب، بل كان رؤيوياً أيضاً. وهو لم يجامل أحداً، لا العرب ولا البدو. جاء في بعض عباراته التي أطلقها بمثابة أحكام قاطعة: "إذا ملك العرب أمّة من الأمم لا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً"، أو: "لا يحصل للعرب الحكم والملك إلّا بصبغة دينية من نبوءة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين". وردّ كل ذلك إلى "توحّشهم الفطري" وبداوتهم ورفضهم القوانين.

ماذا عن الحضارة العربية الإسلامية اليوم؟ أسمّيها "العربية الإسلامية" لأنّه يستحيل فصل العروبة، أي الهوية العربية، عن الدين الإسلامي. ليس ظهور الإسلام في القرن السابع هو الذي فرض هذا الخلط، لكن منذ اللحظة التي أمسكت فيها السياسة بالدين باعتباره عقيدة توظّفها لفرض سلطتها والسيطرة والكذب والإفساد، بات اقتران العربي بالإسلامي أمراً لا مفرّ منه، علماً بأنّ هناك أقليات عربية مسيحية وأرثوذوكسية ودرزية وغيرها. وفي الواقع، إنّ في هذا الانحراف إفقاراً للثقافات العربية ومذهبة للعقليات التي تروح تتخبَّط في اللامعقول، رافضة مقتضيات المنطق، وصولاً إلى محاربتها مبدأ فصل الدين عن الدولة.

ليس العالم العربيّ متمرِّساً بالعلمانية التي يرى فيها نبذاً للإسلام، مع أنّ القول بالعلمانية يعني اعتماد نظرة إلى العالم وفلسفة قائمة على العيش المشترك ضمن إطار احترام قناعات الجميع ومعتقداتهم.

من أين يتأتّى رفض الفصل بين الأمور هذا؟ فهل الإسلام هشّ ومعرّض للعطب إلى هذه الدرجة؟ ولماذا تحوّل الدين ملاذاً انتمائياً كفيلاً بمنح الإنسان أماناً كيانيّاً؟ ولماذا أصبح الإسلام اليوم، بعد أن ظلّ ردحاً طويلاً من الزمن نصير فكر الأنوار خصوصاً بين القرنين التاسع والثاني عشر، حكراً على دعاة الرجعية، وذوي النزعة الظلامية العنيفة في بعض الحالات؟

عندما قرّر كمال أتاتورك تحديث تركيا عام ١٩٢٣، اعتمد العلمنة وفرضها. كما تخلّى في الكتابة عن الحرف العربيّ وغذّى نزعة وطنية ثأرية، كأنّه أراد بذلك التغطية على انهزام الإمبراطورية العثمانية. وترافقت هذه "الحداثة" مع انعزال تركيا التي راحت تولّي نظرها شطر الغرب المسيحي أكثر منها نحو العالم العربي والإسلامي.

لكن غالباً ما تأتي ارتدادات كبت الدين عبر عودة الدينيّ

بقوّة لم تكن في الحسبان.

لم تكن العلمانية في بعض دول الشرق الأوسط كالعراق وسوريا مدرجة في النصوص القانونية لكنّها كانت معيشة عمليّاً. وتطلّب الأمر قيام الثورة الإيرانية ثمّ وقوع حرب الخليج الأولى لكي تستعيد دولة مثل العراق ذكرى الإسلام الطيّبة. وعلى أثر ذلك عجزت مصر، وهي في صراع مع الإخوان المسلمين منذ عام ١٩٢٨ عملياً، عن الوصول بسياسة التماسك إلى حدّ فصل الإسلام عن السياسة، بل بالعكس هي اضطرّت إلى تقديم تنازلات كبيرة لرجال الدين الذين، بالرغم من سيطرتها عليهم، يتطاولون بنحو واسع على السلطتين التشريعية والتنفيذية.

في كلّ أنحاء العالم العربي تقريباً حُرِّف الإسلام عن كتبه المقدّسة وجُرّد من جوهره وضُحِّي بروحانيته وحُوِّل الرمز المقدس راية انتمائية وعقائدية. وليس الإسلام من كلّ هذا بشيء بل إنّ البشر هم الذين يستغلونه لتحقيق مآربهم السياسية معتقدين أنّهم قادرون على خداع الشعوب لفترة طويلة بخطابات مسكّنة. وفي ذلك انهيار إيديولوجيات التطوّر وفشل مشروع الحداثة والفراغ الذي خلّفه السياسيون

بعيد الاستقلالات، إذ لم يعرفوا كيف يتوجّهون إلى الشعوب ولا كيف يتصرّفون بطريقة منطقية في مواجهة السلطات المهيمنة. فرُفع الجهل إلى مصاف الثقافة لتنتفي الحاجة إلى طلب المعرفة حيثما كانت ما دام كلّ شيء موجوداً في الدين. وفي هذا شيء من الاطمئنان! لكنّ الحقيقة أنّ هذا النوع من الكلام خطير ويتعارض مع روحية الإسلام الذي يثني على المعرفة والاختلاف وتمازج الثقافات.

في هذه الأثناء ليس هناك فقط ابتعاد عن العصر الذهبي في العالم العربي والإسلامي، وخيانة روحية الخلفاء الأفذاذ وإرثهم من أمثال معاوية (٦٦١–٦٨١) والمنصور (٧٥٤–٧٧٥) وهارون الرشيد (٧٨٦–٨٠٩) والفلاسفة أمثال الكندي وأبو سليمان وأيضاً المؤرّخ الكبير ابن خلدون، بل هناك تقهقر وتعميق للهوّة التي تفصل العالم العربي والإسلاميّ عن سائر العالم.

إنّ خيانة عصر الأنوارَ هي ببساطة وليدة الجهل. والحال أنّ الجهل صار ينمّى ويشاع وينتشر بسهولة ولا يني يكتسح مساحات جديدة خصوصاً أنّ الثقافة إمّا محرّمة وإمّا محروفة عن أهدافها وإمّا ملغاة. وإن كان الجهل يتقدّم فليس بشكل

مكشوف، بل هو مقنَّع ومتستّر بالثقافة المزيَّفة ويعتبر فنّاً ما هو منافٍ للفنّ ويشجّع إصدار كتب تمجّد الدين ويشجب الإنتاج الأدبي الحرّ والإبداعي والجريء.

وقد وصل الأمر بالتنكّر لعصر الأنوار حدّ فرض رقابة لم تعد دولتية بقدر ما هي دينية. فنجيب محفوظ الذي منعت رقابة الدولة روايته **أولاد حارتنا** عند صدورها قبل أربعين سنة تقريباً، التي اقترحت إحدى دور النشر إعادة نشرها اليوم، أكّد أنّه لا يريد نشرها إلّا إذا أذن الأزهر له بذلك. فهذا الذي تعرّض في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩٤ لاعتداء ارتكبه متعصّب إسلاميّ، أحسَّ بالحاجة إلى حماية القيّمين على الإسلام النقيّ والمتشدّد. وهذا الإسلام، إسلام المتعصّبين، هو إسلام مُنهَك مفرَغ من إنسانيته وروحانيته. أفسِدت روحه وشُوِّهت وأبدِلت بتجارة مخزية.

عن المآذن والبرقع والهويّة الوطنيّة

(مقالة نشرت في صحيفة *Lavanguardia* في ٥ كانون الأول/ديسمبر عام ٢٠٠٩)

قد تؤدّي الديموقراطية المباشرة كتلك التي تُمارس في الاتحاد السويسري إلى حالات زوغان، وهذا ما حصل نهار الأحد الواقع فيه ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر عام ٢٠٠٩ في جنيف مع التصويت على قرار منع المآذن بنسبة أكثر من ٥٧ في المئة. فماذا يعني ذلك؟ يعني القبول بوجود مسلمين على الأراضي السويسرية شرط أن يبقوا غائبين عن الأنظار؟ وأنّ عليهم البقاء محتجبين إلى حدّ الامِّحاء من المشهد العام وعدم رفع أيّ مظهر أو رمز معبّر عنهم؟

هذا يعني أنّ الإسلام لا يزال يثير الخوف وأنّ مبعث هذا الحذر الرهابيّ هو الجهل. وقد كان الملصق الدعائي الذي رفعه أولئك الذين نظموا الحملة ضدّ المآذن في سويسرا

معبّراً جداً، وعليه ألصقت مآذن سوداء على شكل صواريخ على العلم السويسري بجانب امرأة ترتدي البرقع. وعبثاً كان القول تكراراً إنّ البرقع لا علاقة له بالإسلام وإنّه تقليد خاصّ ببعض القبائل الأفغانية أو الباكستانية، فاستمرّ ربط هذا العرف بالدين.

ينمّ هذا الملصق عن شيء من العنصرية إذ يوحي بأفكار ومخاطر يتلقّاها المواطن الصالح في جنيف كنوع من التحذير. ولن يحلّ هذا القرار المشكلة بل على العكس سيفاقم الخلافات بين الطائفة الإسلامية والمواطنين السويسريين.

إنّ في إلغاء المآذن تحقيراً لرمزيتها. فالمئذنة تعبير عن وجود ليس له أيّ صفة عدائية أو سياسية ولا يستخفّ إطلاقاً بـ"الحقوق الأساسية في سويسرا"، بعكس ما أعلنه حزب اليمين الشعبوي.

ونستعيد ما قالته تلك الشابّة المسلمة للتلفزيون الفرنسي: "بالأمس الحجاب، واليوم البرقع وها قد جاء دور المئذنة!". الحقيقة أنّ هذا يولّد شعوراً بالاستياء. فالإسلام، حتّى المسالم منه، وهو الغالبية، لا يزال يسبّب إزعاجاً.

عندما تعرّضت سويسرا للمآذن إنّما تعدّت على رمز ديانة تودّ رؤيتها تزول من بيئتها. وليس من شأن هذه القضيّة، المستبعَد أن تحقّق هدفها، إلّا أن تؤجّج المشاعر، وهو ما قد يتجاوز الحدود السويسرية. فقد رحّبت الجبهة الوطنية في فرنسا بهذا القرار متمنّية أن تتمكّن يوماً من ممارسة هذه الديموقراطية المباشرة والشعبية للتعبير عن رفض الإسلام في فرنسا.

ويمكن إدراج الجدل حول تعليق صليب المسيح في مدارس إيطاليا في الباب نفسه. فهذا رمز لا يسيء إلى أحد، لكن بمجرَّد أن يبدأ تحميل هذا الرمز دلالات جديدة، يتعقَّد الوضع ويُسيَّس. وهذا ما ينطبق على الجدل الدائر حالياً في فرنسا حول "الهويّة الوطنيّة". فمسألة الهويّة هذه تُطرح منذ اللحظة التي يلاحَظ فيها أنّ المشهد البشري في بلدٍ ما يتغيّر بألوانه ومكوّناته، ويطال الأمر كلّ أوروبا لأنّ الهجرة إليها قائمة في كلّ مكان، وأبناءها أوروبيون، منهم المسلم ومنهم الأحيائيّ وآخرون لا يؤمنون بدين. يجب إذاً تقبُّل هذه الحقيقة، ولا جدوى من إجراء تصويت لمحو هذا المشهد أو تصحيحه. ومن البديهي أنّ العيش معاً يُكتسب بالتعلّم

ولا يتحقّق إلّا في إطار التساهل المتبادل واحترام القوانين والحقوق.

لن يرحل المهاجرون وأولادهم عن أوروبا لأنّهم جزء من تاريخها. هم أناس بحاجة إلى ثقافتهم وطقوسهم كغيرهم من الأوروبيين الأصليين.

والغريب في الأمر هو أنّ سويسرا أبدت "تفهّماً" كبيراً مع ابن القذافي الذي أوقف في جنيف بتهمة تعامله مع موظّفيه بعدائيّة وعنف. فقد أطلقت سراحه بعدما تفاوضت مع والده لإيجاد تسوية. وبالطريقة نفسها تتعامل مع غيره من المسلمين الذين يأتونها لإيداع المليارات في مصارفها. فهي تحيطهم بكلّ رعاية واحترام، متناسية أنّهم من أتباع هذا الإسلام الذي ترتعب منه.

أن تكون مسلماً في أوروبا

(مقالة نشرت في جريدة *Espresso* في ٢ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٤)

آية الله الخميني وبن لادن شخصيّتان حرّفتا الإسلام عن معناه وقيمه الجوهرية مُلحقين أذى غير محدود بالمسلمين الذين كانوا يعيشون بسلام ووجدوا أنفسهم اليوم مقترنين بالإرهاب.

شكّل عام ١٩٧٨ محطة حاسمة في نظر من أرادوا إدخال الدين في مجال السياسة. كان آية الله الخميني على اقتناع بأنّ ممارسة السلطة غير ممكنة من دون تطبيق الإسلام، الإسلام الشيعي بالطبع. لقد صرّح بذلك تكراراً، لكنّ كلّ الناس في تلك الفترة جمعوا بين إسقاط نظام شاه إيران الإقطاعي والموالي للغرب والثورة التي كان يُفترض بها تحرير الشعب. حتّى الفيلسوف الألمعي ميشال فوكو أخطأ في التقدير وعبّر

عن حماسته لهذا العجوز ذي الكاريزما المذهلة. وكذلك جان جينيه تأثّر هو الآخر بالخميني الذي تمكّن من طرد رجل يحظى بدعم الغرب بأكمله من طهران. رأى هذان المفكّران الكبيران أنّ الثورة ما زالت في حينه ممكنة في هذا البلد الذي يتمتّع بحضارة رائعة. ولم يستشفّ أحد ما في خطاب الزعيم الديني وفي ممارساته خصوصاً من نزعة ظلامية ومحافظة رجعية، ولم يتمكّن أحد من استشراف ما سيقع لا في إيران فقط بل في قسم كبير من العالم الإسلاميّ.

حتى ذلك التاريخ لم يكن هناك كلام على الإسلام إلّا في ما ندر. وكان المهاجرون من أبناء الديانة الإسلامية يعيشون بسلام في أوروبا التي لم يكن يلفتها وجودهم في حينه.

لم تسبّب الهجرة مشكلة مجتمعية ولم تكن تعني سوى بعض المتخصّصين في ظاهرة الهجرة. لكنّ الحرب الأهلية اللبنانية وزيارة الرئيس أنور السادات لإسرائيل وتوقيع معاهدة السلام بين البلدين بعدها والحرب بين العراق وإيران والأزمة الجزائرية، كلّ ذلك جعل الإسلام عقيدة سياسية تتدخّل في حياة المواطنين اليومية. ثمّ تسلّح الإخوان المسلمون وتمكنوا من اغتيال السادات. وانضوت بعض الميليشيات اللبنانية في

حركة الجهاد الإسلامي تحت النفوذ الإيراني، وباسم الإسلام حمل بعض الجزائريّين السلاح وأسّس بعض الفلسطينيّين المختلفين مع حركة فتح التي يرأسها ياسر عرفات، حركة المقاومة الإسلامية، حماس، إلخ. بكل ذلك بدا الإسلام مسلّحاً وعنيفاً ومتعصّباً ومشوّهاً. وهكذا وقع الخلط بين ديانة السلام والإرهاب الذي يخطف ويذبح ويقتل الأبرياء، وهذا ما ولّد تحاملاً على ملايين المهاجرين المقيمين على الأراضي الأوروبية، الذين بحكم هذا الواقع باتت أوضاعهم صعبة، وصارت النظرة إليهم، شاؤوا أو أبوا، على أنّهم يشكلون خطراً على سلام الشعب الأوروبي. هناك مثل مغربي يقول: "سمكة واحدة متعفّنة تفسد صندوقاً من السمك الطازج". لقد وجهت أصابع الاتهام إلى المهاجرين جميعاً يوم تورّط أحد أبناء وطنهم في قضيّة إرهابية. تكفي جنحة واحدة من مسلم واحد، خصوصاً عندما يفعل ذلك باسم الإسلام، لكي يُنظر إلى جميع المسلمين على أنّهم إرهابيون بالقوّة. إنّها نظرة كاريكاتورية لكنّها متكرّرة، فالشبهة تعمّ الأجواء والناس يرتابون ويرسِّخون أحكامهم المسبقة.

في ١١ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١، لم يغتبط العالم العربي

والإسلامي ولم يحتفل حتى وإن تجرّأ بعض الأغبياء، وهم قلّة، على التعبير عن اغتباطهم بتلك الكارثة. ولا بدّ من أنّ العالم العربي بكى لأنّه كان يعرف أنه هو من سيدفع الثمن، الثمن الغالي لهذا الاعتداء المرعب. أصبح العربي موضع شبهة، يخضع لعمليات التفتيش المذلّة على حدود معظم الدول. لقد تلطّخت صورته ولم تعد لكلمته قيمة. لقد اختُزلت صورة العربي إلى مجرّد إرهابي أو انتحاريّ محتمَل. وما كان من شأن حرب العراق، وهي خطأ وكارثة تاريخيّان، أن أدّت إلى تطوّر الإرهاب الفظيع، وهو ما كان متوقّعاً، والعالم كله حذّر بوش من خوضها، لكنّ هذا الرئيس الاحترابيّ عمل فقط بنصائح مجموعة من الأصوليين واجتاح العراق.

ماذا الآن عن حياة المهاجرين اليومية في أوروبا؟ بالنسبة إليهم طُرحت مسألة الإسلام مع أولادهم الذين قدموا صغاراً جدّاً إلى أوروبا أو وُلدوا على الأراضي الأوروبية. فأيّ حضارة يورّثونهم؟ إذ ليس الإسلام ديانة توحيدية وحسب، بل هو أيضاً قيم أخلاقية وثقافة توجّه المؤمن في أفعاله وتصرّفاته. فالإسلام، وإن كان على مستوى رفيع من الروحانية (أعطى الصوفيّون شعراً هو من الأجمل في الأدب العالمي)، هو

ديانة زمنية، إذ يحدّد طريقة العيش ضمن احترام القيم التي يدافع عنها. هذا هو الإرث الذي يحاول المهاجرون نقله إلى أولادهم، وعند هذا الحدّ ظلّت المسألة بسيطة. لكن عندما يتعطّل مسار الدمج، ولا يكون عند دولة مثل فرنسا سياسة دمج، يجد أولاد المهاجرين هؤلاء أنفسهم متروكين لأمرهم أو للّذين يسعون إلى استمالتهم عقائدياً يحاولون منحهم هويّة وعنفواناً، هويّة الإنسان المسلم، لا على طريقة أهلهم السلمية بل على طريقة الإسلاميّين الهجومية، الذين يتوسّعون بالإسلام وصولاً إلى التضامن مع كلّ الذين يرزحون تحت الاحتلال (الفلسطينيون) وتحت القمع (الشيشان والأفغان، الخ...).

ويعيَّن العدوّ تماماً، وهو هنا الغرب، خصوصاً الأميركيون الذين يدعمون عن غير وجه حقّ سياسة الحكومة الاسرائيلية الإجرامية. وبهذه الطريقة نُقلت الحرب في فلسطين والعراق إلى الساحة الأوروبية. وبالرغم من كونها مبسّطة وفظة تتميّز هذه الرؤية بقدرتها على إقناع الشباب المنحدرين من الهجرة والذين يعانون من مشاعر كبت لا تُحتمل.

ليس كلّ الشباب على هذه الحالة، لكن يكفي أن يتمكّن المجنِّدون من إقناع شاب أو اثنين في كلّ حيّ لكي يشكّلوا

جيشاً صغيراً سرّياً. وبحكم هويّتهم الأوروبية يتمكّن هؤلاء الشباب من التنقّل بجوازات سفرهم الأوروبية فيسهل عليهم عبور الحدود أكثر من المناضلين الآتين من العالم العربي الذين يحتاجون إلى تأشيرة دخول. وبهذه الطريقة تمكّن تنظيم القاعدة من جرّ بعض الشباب الفرنسيين المغاربة إلى المشاركة في أعمال إرهابية دولية.

والأهل هم أوّل من يستنكر هذا الوضع ويأسف له. وسرعان ما يجري الخلط بين المهاجر والإرهابي من دون فتح المجال الكافي لإيضاح أنّ ما يفعله هؤلاء الشباب منافٍ لمبادئ الإسلام الأساسية، وأنّ تداعيات هذا النوع من الإرهاب والوحشية مضرّة ومؤلمة على المهاجرين المسالمين الذين يعملون بكدّ لضمان مستقبل عائلاتهم. فعلى مَن يقع الخطأ؟ ومن المسؤول الأول عن هذه الورطة؟

إذا ما تناولنا الحالة الفرنسية حصراً، يبدو من الواضح تماماً أنّ كلّ الحكومات التي تعاقبت على الحكم فيها منذ أيار/ مايو عام ١٩٨١ تجاهلت الاهتمام بهذا الجيل المولود في فرنسا، بالرغم من مختلف أنواع التحذيرات التي صدرت. فقد بيّنت بعض الدراسات أنّه إن لم تعالج فرنسا سريعاً مشاكل

هذا الجيل فستواجه مشاكل أكثر فداحة.

إنّ فرنسا، بعكس بريطانيا وألمانيا، هي بلد أخذ على عاتقه سياسة الدمج. فبحكم تاريخها الاستعماري والذاكرة الفرنسية المغربية المشتركة، لم يكن بإمكان فرنسا إلّا أن تدمج أولاد ملايين المهاجرين الذين استقدمتهم إلى أراضيها. أمّا الإنكليز والألمان فهم تنويعيّون، أي إنّهم يرون أنّ للمهاجر ثقافته فيساعدونه على تطويرها ولا يدعونه إلى الانضمام إلى الشعب البريطاني والألماني الأصلي. فلكلّ فرد الحقّ في الحفاظ على تمايزه وثقافته، شرط ألا تعتريهما شائبة. ولذلك لم تُطرح مسألة الحجاب في هذين البلدين. ولأنّ فرنسا تصنّع فرنسيين جدداً منذ صغرهم تجد نفسها أمام ضرورة حملهم على احترام قوانين الجمهورية وأهمّها العلمنة. وتكمن المشكلة كلّها في الحُكم الباتّ التالي: "أنت فرنسي، عليك إذاً إلتزام تقاليد هذا البلد". وبإمكان الإسلام، الديانة الثانية في فرنسا، أن يندمج تماماً بنسيج هذا البلد الاجتماعي بشرط عدم التدخّل في القوانين الفرنسية التي تُقرّ في البرلمان والتي يجب على كلّ مواطن فرنسي احترامها.

لقد نجح الفرنسيون عام ١٩٠٥، بعدما خاضوا نضالات

طويلة، في فصل الدين عن الدولة. وقد شكّل هذا القانون الخاصّ بالعلمانية ركيزة الحياة العامّة والديموقراطية. وليس من الوارد أبداً اليوم التخلّي عنه تحت ضغط إسلاميين يريدون فرض نظرتهم إلى العالم على مجتمعات لها خيارات مختلفة في الحياة، خصوصاً في ما يتعلّق بوضع المرأة، وهنا جوهر الصراع بين الإسلاميين والأوروبيين. فبعض الإسلاميين لا يتقبّلون الحريّات التي تتمتّع بها المرأة الغربية، ويخشون انتقال "عدوى" تلك الحرّيات إلى بناتهنّ ونسائهنّ وشقيقاتهنّ. ومن هنا كان فرض الحجاب بما يعني: "نحن نرفض نمط عيشكم ولنا تقالدينا الخاصّة، وباسم الحرّية نطالب بممارستها!". ومردّ هذا الموقف هو إلى سوء فهم. فالعلمنة لا تحظر الديانات بل تحترمها وتحميها، وفي الوقت نفسه تسمح بوجود الإلحاد. فهي تمنح كلّ فرد حرّية الاختيار بين الإيمان والإلحاد، أي باختصار، تجعل الفرد مسؤولاً عن نفسه. لكنّ هؤلاء الإسلاميين قدموا من دول لا تعترف بالفرد، فتتكوّن نظرتان متقابلتان ومتناقضتان إلى الإنسان. ولذلك فإنّ مكافحة النزعة الإسلامية في أوروبا يجب أن تتمّ على عدّة جبهات، والمطلوب هو: وضع سياسة دمج صريحة وجديّة،

وإلقاء الضوء بطريقة فضلى على ما تعنيه العلمنة بالنسبة إلى دولة كفرنسا، وإشراك المهاجرين وأولادهم أكثر فأكثر في مشاريع المجتمع.

ما دام هناك شباب عاطلون من العمل يتسكّعون في الضواحي ويتحوّلون أحياناً إلى الجنوح، وما لم يكن عندهم ما يشغلهم، فسيظلّون عرضة لخوض أيّ مغامرة، ويصبح كلّ شيء ممكناً. فقد يتحوّلون مواطنين مسؤولين عن طيب خاطر، وقد يجتذبهم "مشعوذون" يحدّثونهم عن إسلام منتقم، عن إسلام كفيل بـ"إنقاذهم".

إسلام عطوب

(مقالة نشرت في صحيفة *La Repubblica* في ١٠ تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٦)

لماذا تأتي ردّة فعل بعض المسلمين في انحاء العالم عنيفة ومتفلّتة كلما ألقيت نظرة نقدية على الإسلام؟ ولماذا تغلي النفوس وتفقد اتّزانها وتحسّ بأنّها جُرحت في الصميم نتيجة كلام أو فرضيات مثل تلك التي صدرت عن البابا بينيديكتوس السادس عشر في خطابه في مدينة ريغنسبورغ في ٢٠ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠٦؟ فهل الإسلام على هذه الدرجة من الهشاشة؟ وهل هو على هذه الدرجة من المعطوبية لكي ينزل أتباعه عند أقلّ مناسبة إلى الشوارع ويتظاهروا بطريقة فظّة كما لو أنّ مصير أكثر من مليار شخص بات عرضة للخطر؟

إنّ ردود الفعل العنيفة للغاية التي تسبّب بها نشر الرسوم الكاريكاتورية للنبي محمّد، وقد سقط بنتيجتها عدّة قتلى

وأحرقت بعض المباني الدبلوماسية وقوطعت بعض المنتجات الخ.، كانت متفلّتة جداً لدرجة أنّني تساءلت في تلك الفترة عن طبيعة هذه الحساسية، وهي الدلالة على أنّ الإسلام هشّ لدرجة أنّ مجموعة من الرسوم الكاريكاتورية التي لا أهمّية كبيرة لها، كانت كافية لاستفزازه.

في الواقع، ليس الإسلام هو الهشّ بل بعض الشعوب المسلمة التي عهدت كلّياً بكينونتها وطموحاتها وآمالها وحياتها إلى هذا الدين. فلأنّها لا تعيش في ظلّ أنظمة ديمقراطية بالفعل، التفتت نحو الدين الذي يمنحها أجوبة عن كلّ تساؤلاتها، ونذرت حياتها لهذا الإسلام ومن أجله. وهذا التديّن زال بشكل شبه كامل من الغرب وهذا ما لاحظه البابا وأسف له.

لقد شهدنا هذا النوع من ردود الفعل المقذعة والخرقاء على خطاب البابا. وصادف أنّني قرأت هذا الخطاب بأكمله ووجدته مهمّاً جداً. إنّه خطاب عالم لاهوتيّ، متبحّر في موضوع الديانات وعلاقتها بالعالم. إنّه نصّ صادر عن علّامة جيّد الديباجة وخصوصاً أنّه ينافح عن العقل الذي ينير الفكر والتصرّفات.

لكن من قرأ هذا النصّ؟ بالتأكيد ليس أولئك الذين خرجوا

مذعورين وأحرقوا دمية تمثّل البابا بينيديكتوس السادس عشر.

يتحدّث النصّ عن العلاقة بين الدين والعنف ويستند إلى حوار أجراه الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني باليولوغ في عام ١٣٩١ مع مفكّر فارسي حول المسيحية والإسلام. وقد استشهد البابا بينيديكتوس السادس عشر بعبارات غير لائقة عن الإسلام وعن استعمال العنف لنشر الإيمان. لم يكن هذا المقطع موفَّقاً، فبالرغم من استناده إلى مراجع من القرن الرابع عشر، اعتبره المسلمون اعتداءً على دينهم كما يعيشونه. والحقيقة أنّه كان من المفترض بالبابا ذكر العصر الذهبي وعصر الأنوار عند العرب والإسلام، والتذكير بظهور حركة عقلانية في القرن السابع، هي حركة المعتزلة الذين حوربوا لمحاولتهم إدخال العقلانية إلى الإيمان، وبأنّ المسلمين والمسيحيين تعايشوا بسلام في الأندلس على مدى سبعة قرون.

قد لا يكون البابا بينيديكتوس على علم بأنّ الإسلام حُرِّف عن رسالته السلمية منذ حوالى ثلاثين سنة، ليتحوّل في بعض البلدان عقيدة هدفها محاربة الغرب. لعلّ إعداد الأصولي أسهل من إعداد مثقّف يفكّر ويشكّ ويناقش. وقد بات من الصعب اليوم إثارة موضوع العلاقات التي تربط الإسلام بـ"الآخر"، أي

"الغرب". وكم يبدو معقداً أن يتكلّم المسلم الموزون والرزين عن حرّية العبادة والعلمانية وأسوأ من ذلك عن الإلحاد. إنّ التعصّب يعطّل النقاش، وهذه مشكلة حقيقية بين المسلمين. ففي الجزائر ومصر قُتل بعض المفكّرين الأحرار والفلاسفة الذين اعتمدوا الشكّ. ليس عصرنا هذا عصر الأنوار، ونحن اليوم نعيش أزمة حقيقية وقد أغفل البابا هذه الناحية.

لقد مرّت المسيحية بهذه الحالة، حالة العنف والفظائع المروّعة. والعالم الإسلامي يردّ بهذه الدرجة من الحدّة لأنّه لم يحقّق السلام ولا الرفاه ولأنّه يرى كيف تُساء معاملة المسلمين ويتعرّضون للإذلال في بعض الدول، ولأنّه يلمس أنّ الشعب الفلسطيني لم يحصل على حقوقه العادلة. هنا يكمن سبب ردود الفعل المتفلّتة التي تُذكيها بعض وسائل الإعلام خصوصاً المحطّات الفضائية التي تصبّ الزيت على النار.

لقد آن الأوان لكي يعمل بعض المسؤولين الدينيين على إخماد هذه الحدّة ويقيموا حواراً حقيقياً مع الآخرين، لأننا محكومون بالعيش معاً.

العيش المشترك، المغرب نموذجاً

(مقال نُشر في مجلة *Le Mensuel* الشهرية عدد تشرين الأول/أكتوبر عام ٢٠٠٩)

يقول فولتير في التعصّب "إنّه بالنسبة إلى الباطل مثل الفورة بالنسبة إلى الحمّى ومثل السعار بالنسبة إلى الغضب. فمن يمرّ بحالات انخطاف، وتتهيّأ له رؤى فيعتبر أحلامه حقائق وتوهّماته نبوءات، هو إنسان حماسيّ، أمّا الذي يدافع عن جنونه بالقتل فهو إنسان متعصّب". إنّه أيضاً حبّ مطلق للحقيقة، مع فارق أنّ المتعصّب يرى أنّ حقيقته وحدها يجب أن تسود. لا مكان عنده للشكّ ولا يمكنه أن يتقبّل وجود طرق أخرى للنظر والعيش. قناعاته هي الوحيدة الصالحة ويجب أن يسلّم بها الجميع.

لا يحبّ المتعصّب الثنائية ولا النظر في المرآة. لا يتحمّل النقاش أي تبادل الأفكار والتداول فيها والتوصّل أحياناً إلى

الإقرار بأنّ أفكار الآخرين قيّمة وصحيحة بمقدار أفكاره. هو لا يحبّ الوسطاء، أولئك الذين يقيمون الصلات ويمدّون جسوراً بين التباينات.

ما إن وطّدت الثورة الإيرانية موقعها حتى شرعت في قتل كلّ من كانوا يعملون لتحقيق التقارب بين الشرق والغرب. لا يحبّ المتعصّب سوى نفسه أو من كان متعصّباً مثله وإن عارض قناعاته. في تسعينيّات القرن الماضي أدّت حرب الجزائر إلى تصفية المفكّرين الذين سعوا إلى إقامة حوار بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالضاد، وبين رجال الدين والعلمانيين، فخسرت الجزائر في غضون أشهر عدداً كبيراً من نخبتها الفكرية.

تمّ كلّ ذلك باسم ديانة حُرِّفت إلى عقيدة إجرامية في خدمة ما يُعرف بالقضيّة. وعبثاً كان القول مراراً وتكراراً بأنّ الإسلام غريب عن تلك العقيدة وبأنّ القرآن والنصوص النبوية تدعو إلى الحوار وقبول الآخر، فالمتعصّبون لم يتزحزحوا عمّا هم فيه معتبرين أنّهم يتصرّفون بموجب الدين ويضحّون بأنفسهم لخير المسلمين.

في المغرب لم تصل الأمور إلى هذا الحدّ من الراديكالية

حتى وإن جرت بعض المحاولات لزرعها وأدّت إلى مقتل عشرات الأبرياء. فإنّ ما يميّز الحالة الإسلامية المغربية هو أنها كانت موجودة على الدوام ولم تنجرف قطّ إلى العنف الإجرامي. ولطالما وُجدت في المغرب جمعيات دينية عبّرت بحريّة عن تبايناتها مع المذهب المالكي التقليدي. وبحكم هذا العرف لا يستغرب المواطن المغربي قيام حركة سياسية تطمح تحديداً إلى إضفاء الطابع "الأخلاقي" على حياة البلد الاجتماعية والثقافية.

وما وراء هذا الطموح وفي صلب اهتمام المناضلين يخيّم كهاجس طيفُ المرأة وظروف عيشها وحياتها الجنسية. فالإسلام المتطرّف يصرّ على تحييد المرأة عن الحياة الفعّالة وعلى إبقائها أسيرة حيّز مغلق كي لا يراها أحد، أي يشتهيها، أو ببساطة يقدّر ما فيها من مواصفات. فكلّ شيء يدور حول الأعراف وتطوّرها في المجتمع.

إنّ مستوى تمدّن مجتمع ما يقاس على أساس طريقة معاملته المرأة والنظرة التي تُلقى عليها والدور الذي تضطلع به في المجتمع الناشط، انطلاقاً من موقعها وتأثيرها وحرّيتها. وهذه أفضل طريقة لتقييم نسبة التطوّر التي بلغها مجتمع ما.

نحن في المغرب نعيش على هذا الصعيد وضعاً مبهماً ومتناقضاً. فالمرأة تنال حرّيتها أكثر فأكثر، وصحيح أنّها لم تتساوَ بعد في الحقوق مع الرجل لكن من الملاحظ بعض التطوّرات في وضعها ويتبيّن أنّها تشارك أكثر فأكثر في حياة البلد السياسية والاقتصادية والثقافية. لقد باتت تعمل وتكافح لفرض مكانة لها في عالم ذكوري، وفي الوقت نفسه من النساء مَن يدافعن عن الخطاب الإسلامي ويتماهين معه، فيؤيّدن بعض المواقف التهذيبية الإرشادية بإبداء رغبتهنّ في "تطهير" المجتمع من الرذيلة والانحراف.

قد يكون من المفيد للمغرب المرور بهذه التجربة الإسلامية لكي يثبت في النهاية أنّ الأخلاق والخوف من المرأة، وحياتها الجنسية تحديداً، لن تأتي بالحلول للمشاكل الأساسية والخطيرة التي يواجهها مجتمعنا... لقد تجاهل المغرب، وما يزال، إسهام الثقافة في التطوّر الاقتصادي وتفتّح شخصية المواطن. فبدون مشاريع ثقافية على مجمل أراضي الوطن، في المدن كما في الأرياف، سنبقي البلد في حالة من التقهقر الثقافي المزري الذي يعمّق حالة الفراغ التي تتسلَّل عبرها الأطماع الإسلاميّة.

بات من الملحّ إقامة حوار واضح وجدّي مع كلّ الحركات لكي يتمكن كلّ فرد من التعبير عن رغباته ولكي نألف فكرة كون المغرب مكوّناً من مواطنين متنوّعي النزعات، بعضهم مقتنع بما يؤمن به، والبعض سعيد بممارسة دينه بحرّية تامّة، وآخرون يرغبون في أن يبقى الدين محصوراً بالحياة الخاصّة فلا يطغى على المجال العام، أي بعبارة أخرى اعتماد فصل الدين عن الدولة لكي تتحقّق العلمانية. وليست العلمانية نبذاً للدين ولا هي إلحاد، بل بالعكس هي احترام أكيد للدين، كلّ الأديان، وبشكل أساسيّ لكي لا يتدخّل الفكر الديني في المجالين السياسي والثقافي.

بعد إلقائي في أحد الأيّام محاضرة في كلية الآداب في الرباط، وقف أحد الطلاب وطرح عليّ هذا السؤال صراحة: "سيّدي، هل تؤمن بالله؟". حدثت بلبلة في الصالة أعقبها صمت مريب. خمّنت أنّ الجميع كانوا يرغبون في طرح هذا السؤال لكنّه الوحيد الذي تجرأ على ذلك. فكّرت مليّاً ثمّ قلت له: "الأمر لا يعنيك. إنّها مسألة خاصّة ولست هنا لأحكي لكم عن حياتي!". ساد جوّ من الالتباس وسط صرخات استهجان، ثمّ خيّم الصمت مجدّداً، فاغتنمت

الفرصة لأعرض فكرتي عن العلمانية، وعندها هدأت الخواطر حتى وإن لم يكن الجميع موافقين على ما قلته. ولم يمنع هذا إحدى الصبايا المحجّبات من الاقتراب منّي عند مغادرة الصالة لتقول لي: "السرّ بيننا، أنت مؤمن أليس كذلك؟ يستحيل ألّا يكون رجل مثلك مسلماً صالحاً!".

من الصعب تحقيق احترام القناعات وفتح حوار واعٍ حول هذه الوجه من وجوه حياتنا، وأكثر ما يفتقر إليه المغرب هو حرّية النقاشات التي من شأنها السماح بالتعبير كلّياً عن حقيقة أفكارنا من دون الخوف من التصفية الجسدية أو التعرّض للانتقام. فالحداثة تعني تعلّم العيش معاً، وتعلّم قبول الآخر واحترام قناعات كلّ فرد. والحال أنّ التعصّب يضرب صفحاً عن مفهوم الاحترام البديهي هذا. هو يلغيه. والإسلام هو ديانة أعطت العالم عدداً لا يُحصى من المفكّرين العظماء، فلا يجوز، بسبب بعض الموتورين، التغاضي عن هذه الصورة وعن هذا التاريخ الجميل ليُستبدَل كلّ ذلك بنظرة سلبية وبالخلط الرائج جداً في الغرب بين الإسلام والإرهاب.

كان المغرب على الدوام بلد الاعتدال، وهذا ما عليه أن

يؤكّده كما على الدولة فيه أن تعمل على إبقاء ما هو عام في النطاق العام وعلى حصر ما هو خاص في الإطار الخاص. وإلّا حمّلنا أولادنا عادات سيّئة وجعلناهم أسرى عالم مَرضيّ ورجعي، عالم مظلم وملتبس، المنفذ الوحيد فيه يفضي إلى العنف.

ماذا عن النزعة الإسلامية في سياق "الربيع العربي"؟ البرمجة الإسلامية منتهية الصلاحية

(مقالة نشرت في صحيفة *Die Zeit* في ٢٢ نيسان/أبريل عام ٢٠١١)

لم يتوقّع أحد قيام ثورة الشعوب العربية. لا أجهزة المخابرات البالغة الفعالية والموجودة بقوّة في تلك الدول، ولا المحللون السياسيون أو الجامعيون أو الصحافيون، ولا الشرطة، ولا حتى قادة الحركات الإسلامية النزعة، من الأكثر تطرّفاً فيها إلى المعتدلين. وقد اندلعت الشرارة التي فجّرت الثورة في ١٧ كانون الأول/ديسمبر من مدينة تونسية صغيرة، حين تعرّض محمد بو عزيزي، بائع الفواكه والخضار، لإذلال لا يُحتمل ما دفعه إلى إحراق نفسه أمام مركز البلدية حيث لم يوافق أحد على استقباله والإنصات إلى شكواه.

ليست التضحية بإحراق الذات بأيّ شكل من ثقافة العرب

وعاداتهم، وليست على الأخصّ من الإسلام الذي، على غرار غيره من الديانات التوحيدية، يحظر الانتحار لاعتباره تحدّياً للإرادة الإلهية، ولذلك تُمنع إقامة صلاة الجنازة على المنتحر.

وقد حذا مواطنون آخرون حذو محمد بو عزيزي، في المغرب كما في المشرق، وكانوا جميعاً مسلمين، لكنّهم لحظة إقدامهم على التضحية بأنفسهم خالفوا كلام الله.

إنّ أساس السقطة الأولى للتيّار الإسلامي هو في مخالفة مشيئة الله. فأن يخرج مئات الآلاف إلى الشوارع احتجاجاً على نظام فاسد وديكتاتوري من دون الإتيان في أيّ لحظة على ذكر الإسلام أو الله، هو برهان على أنّ الخطاب الإسلامي تمّ تجاوزه ولم يعد يفعل فعله. يمكن أن نفهم أنّ المتظاهرين في تونس التي علمنها الرئيس السابق بورقيبة (الذي خلعه بن علي بالقوة في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٧)، والتي تمنّعت لاحقاً عن التعصّب الديني عموماً، لم يفكّروا في الاحتجاج باسم القيم الإسلامية. وللمرة الأولى لم يتهجّم الشارع العربي على الغرب ولا على إسرائيل. وفي هذا دلالة على مدى تخلّي الثورة عن العادات القديمة إذ إنّ ملايين المتظاهرين تفادوا كليّاً المطالبة بالإسلام كدستور ومرجع أساسي لإقامة سلطة

جديدة. لكن لا يعني هذا خروجه نهائيّاً من الساحة السياسية.

إنّ ما ميّز الثورات العربية هو أنّها جاءت عفوية وكان هدفها دخول الحداثة، أي صعود دور الفرد والاعتراف به كمواطن لا كتابع مأمور. ولم يسبق لأيّ حزب سياسي موجود أن طالب بهذه الحداثة بهذا الشكل المباشر.

لكنّ اللافت أكثر من غيره هو غياب الإسلاميين عن تظاهرات مصر التي نجحت في إقصاء مبارك عن الحكم في ١١ شباط/فبراير المنصرم. فقد كان هذا البلد عمليّاً مهد الحركة الإسلامية منذ إنشاء حركة الإخوان المسلمين عام ١٩٢٨. وفي شباط/فبراير المنصرم "تحرّرت" مصر دون مشاركة الإسلاميين. فالشعارات التي ردّدها المحتجّون في ساحة التحرير نهلت من القيم الشاملة كالديموقراطية والكرامة والعدالة ومكافحة الفساد والسرقة. لم يطالب الناس إلّا بلقمة عيشهم، لكن أيضاً بالقيم الأساسية التي من شأنها أن تمنع الأنظمة الفاسدة من الحكم من دون أيّ محاسبة. وهذا المنحى الجديد هو الذي ساعد الثورة على دخول دول مغلقة واستبدادية مثل سوريا أو اليمن. والخطاب الإسلامي لم يكفّ عن المطالبة بـ"النظافة الأخلاقية" في الدولة. لكنّه ضحّى على

الدوام بالفرد لمصلحة الجماعة، جماعة المؤمنين. وهو لم يلاحظ تطوّر الشعب ولم يستشعر قوة رياح الحرّية التي كانت تتحضّر بصمت وفي غفلة من معظم فعاليات الثورة.

وهنا الجديد في الأمر. فليست المرة الأولى التي تخرج فيها الجماهير المصرية إلى الشارع بهذه الكثافة. وليست المرة الأولى التي تقمعهم فيها الشرطة بوحشية، ولا المرة الأولى التي يُعتقل فيها الشباب ويُعذَّبون وحتّى يُقتلون في أقبية مراكز الشرطة. لكنّها المرة الأولى التي يكون فيها الغضب حاسماً وعميقاً لا تراجع عنه، والمرة الأولى التي تتّخذ فيها هذه الانتفاضة أبعاداً علمانية من دون أن يتقصَّد المتظاهرون ذلك.

وقد حاول بعض مناصري الإخوان المسلمين السير في ركب الثورة القائمة، لكن لم يلبثوا أن فقدوا عزيمتهم ولم يبرزوا على الساحة.

وكان لغيابهم عن دينامية الثورة المصرية تداعيات مهمّة على الساحة السياسيّة في هذا البلد. فبعد رحيل مبارك وتسلّم العسكر إدارة الدولة، وجد الإسلاميون أنفسهم في المعمعة بجانب مجموعة من الأحزاب السياسية، فاضطرّوا إلى لجم

تعصّبهم الذي لم يعد يتماشى مع العصر، من دون أن يمنع ذلك البعض من الاعتداء على مواطنيهم الأقباط.

فكيف ولماذا فوّت الإسلاميون القطار؟

يعاني الإخوان المسلمون أزمة داخلية منذ زمن طويل، فالأجيال الجديدة لا تتّفق مع الأجيال القديمة، ولم يعد الخطاب والأساليب المتّبعة فعّالة. وقد انفجرت هذه الأزمة إبّان ثورة الشعب، إذ وجد الإخوان المسلمون أنفسهم متخلّفين عن الركب ومهمّشين ولا أحد يؤمن بلازماتهم المملّة. إلّا أنّ ذلك لم يلغِ حركتهم التي ظلّ لها موقعها ضمن التشكيلة الديموقراطيّة. فقبل رحيل مبارك أعطت التقديرات الإسلاميين نسبة ٢٠ في المئة من الأصوات في حال إجراء إنتخابات حرّة، واليوم تتراجع هذه النسبة.

وحاليّاً يُلاحظ أيضاً غياب الخطاب الإسلامي في أوساط الشباب الليبيين الذين يقاومون سخط الطاغية القذافي. هنا أيضاً تولّت قيادة المقاومة في بنغازي أجيال جديدة أغلبهم دون الثلاثين من العمر، وقد عاد بعضهم من أوروبا وأميركا حيث يتابعون دراستهم أو يعملون، وقد حملوا معهم أساليب نضال جديدة، خصوصاً من خلال الفايسبوك والتويتر

والتقارير المنقولة على الهواتف المحمولة. ولم يعد خطاب القذافي يؤثّر فيهم وهم أحرقوا "الكتاب الأخضر" الذي هو تجميعة مبتذلة من الأفكار النرجسية التي لا أساس لها ولا أهمّية.

في البداية عندما سيطر الثوار على مدينة بنغازي لوّح القذافي بشبح التخويف والترهيب، إذ صرّح لبعض التلفزيونات الأجنبية: "إنّهم الإسلاميون، هم من جماعة القاعدة!" مكرّراً ذلك لدرجة فضحت سعيه إلى إيصال رسالة إلى الغربيين: "انتبهوا، إن قدمّتم الدعم لثوّار بنغازي، فهذا يعني أنّكم تساعدون القاعدة." لكنّ مناورته باءت بالفشل لأنّ الثوار لم يرفعوا القرآن بل طلبوا النجدة من الأمم المتحدة وأميركا وأوروبا. ولم يكن للعالم أن يتخلّى عن شعب شبه أعزل في مواجهة أتباع الديكتاتور المدجّجين بالسلاح بعد أن توعّدهم بملاحقتهم "منزلاً منزلاً، وزنجة زنجة".

عندما وافق مجلس الأمن، بمباركة كلّ من الجامعة العربية والاتّحاد الأفريقي، على القرار ١٩٧٣ الذي سمح للحلفاء بنجدة الشعب المعرَّض للخطر لجأ القذافي إلى المناورة نفسها: إنّهم الصليبيون! مع العلم بأن لا فرنسا ولا بريطانيا

ولا أيّ دولة أخرى جاءت إلى ليبيا لقتل المسلمين، والوحيد الذي قتل المسلمين ولا يزال يرتكب المجازر بحقّهم هو القذافي. لقد سقط خطابه الإسلامي كلّياً. وهو بذلك يذكّر بما فعله صدّام حسين عند اجتياحه الكويت عام ١٩٩١ حين أضاف رمزاً إسلامياً على العلم وتصوّر وهو يؤدّي الصلاة، هو فاقد الإيمان المفضوح.

لطالما ظنّ الغرب أنّ من الأفضل التعامل مع ديكتاتور بدلاً من التعامل مع إسلاميين، معتقداً أنّ أمثال الرئيس التونسي بن علي أو المصري مبارك يشكّلون "دروعاً" في وجه الخطر الإسلامي. وقد غضّ الأوروبيون الطرف وساعدوا تلك الأنظمة (وعقدوا معها الصفقات في الوقت نفسه). وبنتيجة ذلك اكتست الحركة الإسلامية أهمّية لا تتطابق مع الحقيقة والوقائع. طبعاً، كان الإخوان المسلمون يعارضون السلطة المصرية ويقدّمون أنفسهم بديلاً من نظام الحزب الأوحد. وقد انتشرت في المجتمع عدّة تيّارات سياسية، منها التيّار الإسلامي، لكنّه لم يكن بالحجم والنفوذ الذي افترضه بعض المراقبين الغربيين. وبالتأكيد حاول تنظيم القاعدة دخول دولة المغرب، واحتجز رهائن وابتزّ الدول، لكن لم يعد أحد يصدّق أن تنظيم القاعدة هو وجه الإسلام الحقيقي.

عندما تسلّم بن علي الحكم في تشرين الثاني/نوفمبر عام ١٩٨٧، شنّ حملة شرسة على جميع المعارضين، وخاصّة على الإسلاميين. فشهد البلد عمليات مطاردة وغصّت السجون بالمعارضين الذين تعرّضوا للتعذيب قبل أن يخضعوا لمحاكمات قضت عليهم بالسجن لعدّة سنوات. وقد زعمت السلطة أنّهم أصوليون خطرون وتحوّلت الحرب على الإسلاميين ذريعة مثالية ليتمكن النظام الديكتاتوري من توطيد حكمه وإسكات المعارضة وإتمام الصفقات من دون أن يزعجه أحد. أما راشد الغنوشي، زعيم حركة "النهضة" الإسلامية، فقد صرّح عند عودته من منفاه في لندن بما يلي: "لا أريد إقامة جمهورية إسلامية في تونس ولن أترشّح للانتخابات الرئاسية"[١].

إن الجديد في الأمر، الذي سيقلب العلاقات بين الغرب والعالم العربي رأساً على عقب، هو أنّ ذريعة الإرهاب الإسلامي لن تبقى صالحة. فالحالة الإسلامية ما تزال قائمة لأنّها تتلاءم

١ . قد يوحي حصول حزب النهضة على غالبية الأصوات في انتخابات المجلس التأسيسي التي جرت في ٢٥ تشرين الأول عام ٢٠١١ بسير الأمور نحو أسلمة تونس، لكنّ في ذلك تجاهلاً لكون المجتمع المدني التونسي، وفي مقدّمه حركات نسائية، يبقى متيقّظاً ويكافح ضمن أطر الديموقراطية، لمنع الإسلام من التدخّل بطريقة متعصّبة في حياة هذا البلد السياسية.

مع حاجة ثقافية وكيانيّة، علماً بأنّ غياب الديموقراطية هو الذي سهّل انتشارها. فإذا ما استوعِبت الديموقراطية بالشكل الصحيح فستأخذ في الاعتبار التيّارات الدينية وكذلك التيّارات العلمانية. لقد أسقط الشعب الحراك الإسلامي عندما تجاهله ورفض خوض ثورته باسم الإسلام. والفضل في ذلك يعود إلى الأجيال الجديدة في الشتات العربيّ والإسلامي في العالم. لقد أودت رياح الثورة في سياق تناميها بالمعزوفات القديمة المجترّة التي حاولت إعادة العالم المسلم إلى زمن النبي محمّد (القرن السابع). لكن بات للشباب منظومتهم الخاصّة لفهم القرآن، عبر قراءة ذكيّة وعقلانية وغير مباشرة، وهذا هو الجديد والثوري في الأمر.

فوجئت الإدارة الإيرانية بهذه الثورات وانتابها القلق. فقد كانت تحلم بقيام جمهورية إسلامية في مصر ودول عربية أخرى فإذا بها تجد نفسها في وضع متزعزع. وبادرت عندها إلى دعم الشيعة في البحرين واليمن. لكن حتى في تلك البلدان تجاهلت التظاهرات المراجع الدينية كلّياً.

وإذا ما سقط بشار الأسد، رئيس الدولة السورية، فسيعني ذلك نهاية حزب الله وحتى حركة حماس. ذلك أنّ إيران تدعم

وتموّل هذين الحزبين الإسلاميّين بالتواطؤ التام مع سوريا.

تبقى مسألة الإرهاب باسم الإسلام. فتنظيم القاعدة كناية عن بؤرة سريّة لا يقوم في مكان محدّد، وهو منتشر في العديد من الدول، وهدفه جعل الإرهاب تجارة مربحة، بدليل أنّ الهدف من كلّ عمليات الخطف كان الحصول على فديات مالية. وسيبقى تنظيم القاعدة ناشطاً وعلى الأرجح سيرتكب الجرائم في بلدان تحرّرت من أنظمتها الديكتاتورية، فهو لن يلقي سلاحه. لكن هذا لا ينفي أنّ دور هذه البؤرة الإجرامية قد عطّل بنسبة كبيرة، وهذا ما يصعب عليه تحمّله، ولذلك قد يصل به الأمر حدّ ادّعاء المشاركة في جزء وهميّ من هذه الثورة. فأن تتحرّر الدول العربية من دون دعم مجرمي بن لادن سيوقع هؤلاء موقعاً يصعب عليهم تحمّله لوقت طويل.

ها هي الثورات العربية تؤذن بسقوط الأنظمة السلطوية وغير الشرعية وترفض صراحة ومن دون أيّ لبس وحشية تنظيم القاعدة ومغامريه. ولا يعني هذا نهاية الإرهاب في العالم، لكنّ المرور عبر البرمجة الإسلامية بات معطّلاً.

‘الروائي المغربي الأكثر قوة وإنتاجية‘

Independent

راوياً قصّة رجل قُدِّر له أن يكون نبيّاً، وقصّة ديانة وحضارة قدّمت إلى البشريّة الكثير من الإسهامات، يتحدّث الطاهر بن جلّون عن الإسلام وحضارة العرب، لأولاده الذين وُلِدوا مسلمين، ولكلّ الأولاد أيّاً تكن بلادهم وأصولهم ودياناتهم ولغاتهم وتطلّعاتهم.

إنّها دعوة للتوسّع والتعمّق في تعليم الإسلام وسائر الديانات التوحيدية، يعرض بها المؤلّف كيف حُرّفت هذه الديانة ومبادؤها وقِيَمها لتوضع في خدمة فكرٍ متعصّب.

بعيداً عن الخطاب الوعظي والأسلوب الدفاعي يشرح هذا الكتاب الإسلام للأولاد ولأهاليهم.

الطاهر بن جلون كاتب وروائي مغربي حائز ‘جائزة دبلن للآداب‘ عام 2004 و‘جائزة إمباك الأدبية‘ عام 2000. ترجمت رواياته إلى عدد من اللغات. صدر له عن دار الساقي: ‘عشرُ ليالٍ وراوٍ‘، ‘عينان منكسرتان‘، ‘الإرهاب كما نشرحه لأولادنا‘.

ISBN 978-614-425-984-9

9 786144 259849 >

DAR AL SAQI

دار الساقي

www.daralsaqi.com